الباب السادس عشر
من الإسكندر إلى أورانجزيب

الفصل الأول

تشاندرا جوپتا

الإسكندر فى الهند – تشاندرا جوپتا محرر بلاده – الشعب – جامعة تاكسيلا – القصر الملكى – يوم فى حياة ملك – مكيافلى أسبق عهداً من مكيافلى الحديث – الإدارة – القانون – الصحة العامة – النقل والطرق – الحكومة البلدية

فى سنة ٣٢٧ قبل الميلاد ، عبر اسكندر الأكبر جبال هندوكوش آتياً فى طريقه من فارس ، وهبط على بلاد الهند ؛ ولبث عاماً يجول بحملته بين دول الشمال الغربى من الهند ، التى كانت جزءاً من أغنى أجزاء الإمبراطورية الفارسية ، وأخذ يجمع منها المؤن لجنوده والذهب لخزانته ؛ وعبر السند فى الجزء الأول من سنة ٣٢٦ ق . م . وشق طريقه بالقتال بطيئاً ، متخللا « تاكسيلا » و « روالپندى » متجهاً نحو الجنوب والشرق ، والتقى بجيش الملك پورس حيث هزم من جيش المشاة ثلاثين ألفاً ، ومن الفرسان أربعة آلاف ، ومن العربات الحربية ثلاثمائة ، ومن الفيلة مائتين ، وقتل اثنى عشر ألف رجل ؛ فلما أن أسلم « پورس » بعد أن قاتل حتى استنفد جهده ، أمره الإسكندر أن يقول على أى نحو يريده أن يعامله ، ذلك لأنه أعجب بشجاعته وقوامه وجمال قسماته ، فأجابه « پورس » ، « عاملنى يا اسكندر معاملة تليق بالملوك » فقال الإسكندر : وسأعاملك معاملة الملوك بالنسبة إلى نفسى ، وأما بالنسبة إليك أنت ، فمُرْ بما تريد » ، لكن « پورس » أجاب بأن كل شىء يريده

متضمن فيما طلب أولا ؛ وأعجب الإسكندر بهذا الجواب إعجاباً شديداً ، ونصّب « پورس » ملكاً على الهند المفتوحة كلها ، باعتباره تابعاً خاضعاً لمقدونيا ، ولقد وجده بعدئذ حليفاً نشيطاً أميناً(١) ، وأراد الإسكندر أن يتقدم بجيوشه حتى يبلغ البحر من ناحية الشرق ، لكن جنوده احتجوا على ما أراد ، وكثر فى ذلك بينهم القول وازداد التجهم ، فخضع الإسكندر لمشيئتهم وقادهم خلال قبائل معادية له إشفاقاً على أوطانهم من اعتدائه ، مما اضطر جنود الإسكندر أن يحاربوا فى سيرهم عند كل قدم من الطريق ، أوكادوا — قادهم حداء « هيداسب » وإلى جوار الساحل ؛ حتى اخترق بهم « جدروسيا » إلى بلوخستان ؛ فلما وصل « سوزا » بعد عشرين شهراً من عودته بعد فتوحه لم يعد جيشه أكثر من فلول منهوكة من الجيش الذى كان قد دخل به الهند قبل ذاك بثلاثة أعوام .

وبعد ذلك بسعبة أعوام كان كل أثر للسلطان المقدونى قد زال عن الهند زوالا تاماً(٢) ، وكان العامل الأول فى زوال ذلك السلطان ، رجل هو من أروع من يثير الخيال فى تاريخ الهند من رجال ؛ فهو وإن يكن أقل منزلة فى صفاته العسكرية من الإسكندر ، إلا أنه أعظم منه حاكماً ؛ ذلك هو « تشاندرا جوپتا » الشريف الشاب الذى ينتمى إلى طبقة الكشاترية المقاتلة ، وقد نفته من « مجاذا » أسرة « ناندا » الحاكمة التى كان هو من أبنائها ، وكان إلى جانبه ناصح مكياڤيلىّ ماكر ، هو « كوتيلا تشاناكيا » الذى أعانه على تنظيم جيش صغير اكتسح به الحاميات المقدونية ، وأعلن الهند حرة من الغازى ثم تقدم إلى « پاتاليپوترا(*) » عاصمة مملكة « مجاذا » وأثار فيها ثورة واستولى على عرشها ، وأسس بها « أسرة موريان الحاكمة » التى حكمت الهندستان وأفغانستان مدى مائة وسبعة وتلاثين عاماً ، ولما استسلم « تشاندرا جوپتا » بشجاعته لحكمة « كوتيلا » التى لم يكبح جماحها ضمير ، سرعان ما أصبحت

(*) هى ما تسمى الآن « پاتنا » .

حكومته أقوى حكومة كان يعرفها العالم عندئذ ، حتى أنه لما جاء المجسطى سفيراً فى « پاتاليپوترا » عن « سلوكس نكتار » ملك سوريا ، أدهشه أن يرى هناك مدنية وصفها لليونان المدققين المتشككين الذين كانوا عندئذ لم يزالوا فى موضع قريب من أوج حضارتهم ، فقال إنها مدنية مساوية للمدنية اليونانية مساواة تامة(٣) .

وصف لنا هذا الإغريقى الحياة الهندية فى عصره وصفاً ممتعاً ، ربما مال فيه نحو التهاون فى الدقة ليكون فى صالح الهنود ؛ وأول ما استوقف نظره هناك هو ألا رق فى الهند(*) على خلاف ما عهده فى أمته ، وهو اختلاف يجعل الأولى أعلى من الثانية منزلة فى هذه الناحية ، وأنه على الرغم من انقسام السكان إلى طبقات حسب ما يؤدونه من أعمال ، فقد قبل الناس هذه الأقسام على أنها طبيعية ومقبولة ؛ ويقول السفير عنهم فى تقريره إنهم كانوا « يعيشون عيشاً سعيداً » لأنهم :

« فى سلوكهم يتصفون بالبساطة ، وهم كذلك مقتصدون فهم لا يشربون الخمر قط إلا فى الاحتفال بتقديم القرابين ... والدليل على بساطة قوانينهم ومواثيقهم هو أنهم قلما يلجأون إلى القانون ، فهم لا يتقدمون إلى محاكمهم بقضايا عن خرق العهود أو نهب الودائع ، بل هم لا يحتاجون إلى أختام أو شهود ، لكنهم يودعون أشياءهم على ثقة بعضهم ببعض . . . إنهم يقدرون الحق والفضيلة قدراً عظيما .. والجزء الأعظم من أرضهم يزرع بالرى ، ولذلك ينتج محصولين فى العام ... ولهذا كان من الثابت أن الهند لم تعرف المجاعة قط ، ولم يكن بها قحط عام فى موارد الطعام اللازم للتغذية(*) .

وأقدم المدائن الألفين التى كانت فى الهند الشمالية فى عهد « تشاندراجوبتا » هى مدينة « تاكسيلا » التى تبعد عشرين ميلا — جهة الشمال الغربى — عن

(*) يقول « أريان » : « هذا شىء عظيم فى الهند ، أعنى أن يكون سكانها جميعاً أحراراً ، ليس بينهم هندى واحد من الرقيق »(٤) .

مدينة « روالپندى » الحديثة ، ويصفها « أريان » بأنها : « مدينة عظيمة مزدهرة » ؛ ويقول « سترابو » : « إنها كبيرة وبها أرقى القوانين » ، فقد كانت مدينة عسكرية ومدينة جامعية فى آن معاً ، إذ تقع من الوجهة العسكرية على الطريق الرئيسية المؤدية إلى آسيا الغربية ، وكان بها أشهر الجامعات الكثيرة التى كانت فى الهند إذ ذاك ، فكان يحج إليها الطلاب زرافات ، كما كانوا يحجون زرافات إلى باريس فى العصور الوسطى ، ففى وسع الطلاب أن يدرسوا بها ما شاءوا من فنون وعلوم على أيدى أساتذة أعلام ، وخصوصاً مدرستها للطب ، فقد ذاع اسمها فى العالم الشرقى كله مقروناً بالتقدير العظيم(*) .

ويصف المجسطى مدينة « پاليبوترا » عاصمة الملك « تشاندرا چوپتا » فيقول إنها تسعة أميال فى طولها وميلان تقريباً فى عرضها(١٠) وكان القصر الملكى بها من خشب ، لكن السفير الإغريقى وضعه فى منزلة أعلى من منزلة المساكن الملكية فى « سوزا » و « إكباتانا » ولا يفوقه إلا قصور « پرسوپوليس (أى مدينة الفرس) ؛ فأعمدته مطلية بالذهب ومزخرفة بنقوش من حياة الطير ومن ورق الشجر ، وهو من الداخل مؤثث تأثيثاً فاخراً ومزدان بالأحجار الكريمة والمعادن النفيسة(١١) ؛ وقد كان فى هذه الثقافة قسط من حب الشرقيين للتظاهر ، فمثلا ترى ذلك واضحاً فى استخدامهم لآنية من الذهب قطر الواحدة منها ست أقدام(١٢) ؛ لكن مؤرخاً إنجليزياً يبحث الآثار المادية والأدبية والتصويرية لتلك المدينة فيصل إلى نتيجة ، هى أنه « فى القرنين الرابع والثالث قبل المسيح لم يكن ما يتمتع به ملك موريا من أسباب الترف بكل

(*) كشفت حفريات سيرجون مارشال فى تاكسيلا عن أحجار منحوتة نحتاً دقيقاً ، وعن تماثيل مصقولة صقلا بلغ الغاية ، وعن نقود ترجع إلى سنة ٦٠٠ ق . م . وعن مصنوعات زجاجية دقيقة الصناعة لم نفقها أية صناعة من نوعها فى الهند بعدئذ(٨) ، ويقول فنسنت سمث : « إنه من الواضح أنهم بلغوا من الحضارة حداً بعيداً ، وأن كل الفنون والصناعات التى تصاحب حياة مدنية غنية مثقفة ، كانت معروفة لهم(٩) » .

ضروبها ، والصناعات اليدوية الماهرة بكل أنواعها ، أقل مما كان يتمتع به أباطرة المغول بعد ذلك بثمانية عشر قرناً »[١٣] .

أقام «تشاندرا جوپتا» فى هذا القصر ، بعد أن استولى على العرش بالقوة ، مدى أربعة وعشرين عاماً ، فكان كأنما يعيش منه فى سجن مطلى بالذهب ؛ وكان يظهر للشعب حيناً بعد حين ، مرتدياً ثوباً من الموصلى الموشّى بالأرجوان والذهب ، محمولا فى محفة ذهبية ، أو على فيل مطهم بأفخر الطهم ؛ وكان وقته مليئاً بأعمال مملكته المتزايدة ، إلا ساعات كان يقضيها فى الصيد أو فى غيره من أنواع التسلية ؛ فيومه ينقسم ستة عشر جزءاً طول الجزء منها تسعون دقيقة ، فكان يستيقظ فى الجزء الأول من يومه فيُعِدُّ نفسه بشىء من التأمل ، وفى الثانى يقرأ التقارير التى يرفعها إليه موظفوه ، ويصدر فيها تعليمات سرية وفى الثالث يجتمع بمستشاريه فى قاعة المقابلات الخاصة ؛ وفى الرابع يبحث فى أمور المالية والدفاع القومى ؛ وفى الخامس يصغى إلى شكاوى رعيته وقضاياها ؛ وفى السادس يستحم ويتناول غداءه ويقرأ شيئاً من كتب الدين ؛ وفى السابع يتقبل الضرائب والجزية ويضرب المواعيد الرسمية ؛ وفى الثامن يلتقى بمستشاريه مرة ثانية ويستمع إلى ما يقرره له الجواسيس الذين كان يرصدهم ، وبين هؤلاء عاهرات استخدمهن لهذه الغاية[١٤] ؛ وخصص الجزء التاسع من يومه للاستحمام والصلاة ، والعاشر والحادى عشر للشئون العسكرية ؛ والثانى عشر للتقارير السرية مرة أخرى ؛ والثالث لحمام المساء ووجبته ؛ والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر للنوم[١٥] ؛ ويجوز أن يكون المؤرخ قد صور لنا بهذه الصورة ما كان يمكن أن تجرى عليه حياة « تشاندرا جوپتا » من نظام ؛ أو هو يصور لنا بها ما أراد « كوتيلا » أن يتصوره الناس عن مليكه ؛ أكثر مما يصور لنا حقيقة ذلك الملك فى حياته ، فالحقيقة قلما تفات من أجواف القصور .

كان زمام الحكم الحقيقى فى يد وزيره الماكر « كوتيلا » و « كوتيلا »

برهمى عرف القيمة السياسية للدين ، لكنه لم يتخذ من الدين هداية خلقية ؛ فهو شبيه بدكتاتوربى هذا العصر ، فى إيمانه بأن كل الوسائل لها مبررات ما دامت تنتهى إلى صالح الدولة ؛ وكان غادراً لا يزجره من نفسه ضمير ، إلا إزاء مليكه ؛ فقد خدم « تشاندرا جوپتا » فى منفاه وفى هزيمته وفى مغامراته وفى دسائسه وفى اغتياله للناس وفى نصره ؛ واستطاع بفضل حكمته ودهائه أن يجعل ملك سيده أعظم ما عرفته الهند فى تاريخها كله ، ولقد رأى « كوتيلا » — كما رأى من بعده مؤلف « الأمير »(*) — أنه من المفيد أن يدون للأجيال القادمة آراءه التى عالج بها الأمور العسكرية والسياسية ؛ وإن الرواية لتنسب إليه كتاب « أرثاشاسترا » وهو أقدم كتاب مما بقى لنا من الأدب السنسكريتى(١٦) ولكن نسوق لك مثلا من واقعيته الدقيقة ، نذكر لك ما ذكره من الوسائل التى تتبع فى الاستيلاء على أحد الحصون ، وهى : « الدسائس والجواسيس واستمالة شعب الأعداء ، والحصار والهجوم »(١٧) — وفى هذه الدسائس اقتصاد حكيم للمجهود البدنى .

لم تزعم الحكومة لنفسها اصطناع الأساليب الديمقراطية ؛ والأرجح أنها كانت حكومة لم تشهد الهند طوال تاريخها حكومة أكفأ منها(١٨) ؛ فلم يكن لدى « أكبر » — وهو أعظم المغول — « ما يماثلها كفاءة ، ومما يدعو إلى الشك أن يكون بين المدن اليونانية القديمة ما يفوقها نظاماً »(١٩) ؛ كانت تقوم صراحة على القوة العسكرية ؛ فكان « لشاندرا جوپتا » جيش قوامه — إذا أخذنا برأى المجسطى (الذى يجب أن يكون موضع ريبة كأى مراسل أجنبى آخر) — ستمائة ألف من المشاة ، وثلاثون ألفاً من الكبان ، وتسعة آلاف من الفيلة ، وعدد لم يحدد من العربات الحربية(٢٠) ؛ وكان البراهمة والفلاحون يعفون من الخدمة العسكرية ، فيصف لنا « سترابو » هؤلاء الفلاحين وهم

(*) مؤلف كتاب « الأمير » هو مكيافلى صاحب السياسة الوصولية المشهور . (المعرب)

يحرثون الأرض فى هدوء وأمن وسط حومات تضطرب بالقتال(٢١) .

وكانت سلطة الملك مطلقة من الوجهة النظرية ، أما من الوجهة العملية فكان يحدُّها مجلس للشورى كان من شأنه التشريع ــ أحياناً فى حضور الملك وأحياناً فى غيابه ــ وتنظيم المالية القومية والشئون الخارجية ، وهو الذى كان يعين لكل المناصب الهامة فى الدولة رجالها ؛ ويشهد المجسطى بما كان لأعضاء ذلك المجلس من « خلق سام وحكمة عالية » كما يذكر ما كان لهم من نفوذ فعال(٢٢) .

كانت الحكومة مقسمة أقساماً لكل منها واجبات واضحة الحدود ، وموظفون يتدرجون فى درجاتهم تدرجاً أحسن تدبيره ؛ فتقوم هذه الأقسام بالإشراف على الدخل ، والجمارك ، والحدود ، وجوازات السفر ، والمواصلات ، والضرائب ، والمناجم ، والزراعة ، والماشية ، والتجارة ، والمخازن ، والملاحة ، والغابات ، والألعاب العامة ، والدعارة ، وسك النقود ــ لكل من هذه قسم خاص ؛ وكان للمشرف على قسم ضريبة الإنتاج حق رقابة بيع العقاقير والمسكرات ، وكان يقيِّد عدد الحانات ومواضعها ، وكمية الخمور التى يجوز لها أن تبيعها ؛ وللمشرف على المناجم أن يؤجر مواقع الاستنجام لأفراد يدفعون للحكومة أجرا معلوما وجزءاً معينا من الربح ؛ وللإشراف على الزراعة نظام كهذا ، لأن الأرض كلها كانت ملكاً للدولة ؛ وللمشرف على الألعاب العامة الرقابة على قاعات القمار ، وأن يقدم الزهر (زهر اللعب) للاعبين ويتقاضاهم رسما على استخدامه ، كما كان يقتطع لخزانة الدولة خمسة فى كل مائة مما يدفعه اللاعبون ، وأما المشرف على الدعارة فكان من شأنه أن يراقب العاهرات ، ويضبط أجورهن ومصروفهن ، وكان يحدد لأعمالهن يومين من كل شهر ، ويأخذ منهن اثنتين للقصر الملكى ، تقومان هناك للمتعة من جهة وللجاسوسية من جهة أخرى ، وفرضت الضرائب على كل مهنة وكل عمل وكل صناعة ! أضف إلى ذلك ما كان الأغنياء يُحملون على دفعه من « تبرعات » للملك ، وكانت الحكومة تراقب الأسعار ، وتراجع الموازين والمقاييس حيناً بعد حين ؛ ثم كان للدولة مصانع خاصة بها تقوم

فيها الحكومة بصناعة بعض الأشياء، كما كانت تبيع الخضر وتحتكر المناجم والملح والخشب والمنسوجات الدقيقة والجياد والفيلة(٢٣).

وكان يقوم على القانون فى الريف رؤساء محليون فى القرى، أو مجالس قروية قوام الواحد منها خمسة رجال؛ وأما فى المدن والأقاليم والمناطق فيعهد بأمره إلى محاكم دنيا ومحاكم عليا، وفى العاصمة يتولاه المجلس الملكى باعتباره محكمة عليا، ويتولاه الملك نفسه على أنه محكمة استئناف، لا نقض لحكمها؛ وكانت العقوبات صارمة، منها بتر الأعضاء والتعذيب والموت، وهى تقوم عادة على مبدأ «العين بالعين والسن بالسن» أى مبدأ القصاص المتعادل؛ لكن الحكومة لم تكن مجرد أداة للضغط على الشعب، بل كانت كذلك تعنى بالصحة العامة، فأقامت المستشفيات وملاجئ الفقراء، وكانت توزع فى السنين العجاف ما قد يكون فى مخازن الدولة استعداداً لأمثال هذه الطوارئ؛ وتضطر الأغنياء إلى المشاركة فى معاونة المعوزين، وتنظم مشروعات عامة كبرى للعناية بالمتعطلين فى سنى الأزمات(٢٤).

وأما قسم الملاحة فكان اختصاصه تنظيم النقل المائى ووقاية المسافرين فى الأنهار والبحار؛ وكانت كذلك ترعى الجسور والموانى، وتهيئ «معدّيات» حكومية تعمل جنباً إلى جنب مع «المعدّيات» الخاصة التى يملكها ويديرها أفراد(٢٥) — وهو نظام جميل يمكن الحكومة بدخولها فى المنافسة من الحد من إسراف الأفراد فى استغلال الجمهور، كما تمكن المنافسة الحرة من الحد من إسراف الحكومة وبذخها؛ وكان من واجب قسم المواصلات أن يشق الطرق ويعبّدها ثم يقوم على صيانتها فى أرجاء الإمبراطورية، من الممرّات الضيقة التى تُعَدّ للعربات فى الريف، إلى الطرق التجارية التى يبلغ عرض الواحد منها اثنتين وثلاثين قدماً، ثم إلى الطرق الملكية التى يبلغ عرضها أربعاً وستين قدماً.

وكان طريق من هذه الطرق الملكية يمتد ألفاً ومائتين من الأميال ، من « پاتاليبترا » إلى الحدود الشمالية الغربية[٢٦] — وهى مسافة تساوى نصف الطريق من هاتيك الطرق الرئيسية التى تعبر الولايات المتحدة من شرقها إلى غربها ؛ وعند كل ميل تقريباً من هذه الطرق — فيما يقول المجسطى — كانت تقوم أعمدة تشير إلى الاتجاهات وتبين المسافات إلى مختلف البلدان[٢٧] ، وكنت تجد على طول الطريق أشجاراً ظليلة وآباراً ومراكز للشركة وفنادق ، أعدوها على مسافات دورية من الطريق[٢٨] ؛ وكانت وسائل النقل هى العربات والمحفات والعربات تجرها الثيران ، ثم الجياد والجمال والفيلة والحمير والناس ؛ وكانت الفيلة من ألوان الترف التى تقتصر عادة على الملك وكبار رجال الدولة ، وكانت من غلو القيمة عندهم بحيث عدُّوا عفة المرأة ثمناً متواضعاً للواحد منها(*) .

وكان يتبع فى حكومات المدن مثل هذا النظام بعينه من حيث تقسيم الإدارة إلى أقسام ، فالعاصمة « پاتاليپترا » كان يحكمها مجلس مؤلف من ثلاثين عضواً ، ينقسمون ستة أقسام ، يقوم قسم منها على تنظيم الصناعة ، وآخر يراقب الأجانب فيعدّ لهم المساكن ويعين لهم من يقوم بخدمتهم ويراقب حركاتهم ، وقسم ثالث يسجل المواليد والوفيات ، ورابع يرخص للتجار مباشرة تجارتهم ، وينظم بيع المحصول ، ويراجع المقاييس والموازين ، وخامس يراقب بيع المصنوعات ، وقسم سادس يجمع ضريبة قدرها عشرة فى كل مائة عن المبيعات كلها ؛ وفى ذلك يقول « هافِلْ » : « وصفوة القول إن پاليپترا فى القرن الرابع قبل الميلاد ، فيما يظهر ، قد كانت مدينة على أتم ما تكون المدن نظاماً ، وتقوم عليها إدارة تتمشى مع أحسن المبادئ فى علم الاجتماع »[٢٨ ا] ؛ وكذلك يقول « ڤنسنت سمِث » : « إن الكمال الذى بلغته هذه النظم التى

(*) « إن نساءهم اللائى يحرصن كل الحرص على عفافهن ، ولا يغويهن بالفجور شى كائنا ما كان ، كنّ إذا ما قدم لهن الرجل فيلا قبلت الواحدة منهن مضاجعة الواهب ؛ إذ ليس فى عرف الهنود أنه مما يشين المرأة أن تسلم عرضها لقاء فيل ، بل إن المرأة عندهم لترى مدعاة للفخار أن يكون جمالها مساوياً فى قيمته لفيل » . (أريان)

أشرنا إليها ، ليثير العجب حتى إن اقتصرت فى ذكره على موجز مقتضب ؛ ثم تزداد عجباً — إذا ألممت بتفصيلات الإدارة — كيف أمكن لمثل هـــذا النظام أن تدبَّر قواعده ، وأن يُنفَّذ تنفيذاً دقيقاً فى الهند فى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد »(٢٨ب) .

والنقص الوحيد فى هذه الحكومة هو استبدادها ، وبالتالى اعتمادها اعتماداً متصلا على القوة وعلى الجواسيس ، فحاكمها « تشاندرا جوپتا » شأنه شأن كل حاكم مستبد آخر — كان قلقاً على عرشه ، لا ينقطع خوفه من الثورة والاغتيال ؛ فكان ينام كل ليلة فى مخدع يختلف عن مخدع الليلة السابقة ، ولم يخلُ قط من حراسة الحراس ؛ وتروى الرواية الهندية ، ويؤيدها المؤرخون الأوربيون ، أنه لمـــا أطبقت مجاعة طويلة على مملكة « تشاندرا جوپتا » (راجع المجسطى) حمله اليأس على النزول عن عرشه ، وعاش بعدئذ اثنى عشر عاماً زاهداً جانتياً ، ثم انتهى به الأمر أن فرض على نفسه الجوع حتى مات به ؛ يقول ڤولتير : « إنك لو وضعت كل الظروف موضع الاعتبار ، ألفيت حياة النوتى فى « جندوله » خيراً من حياة حاكم المدينة ، لكنى أعتقد أن الفرق بين حياتيهما أتفه من أن يستحق منا التدقيق فى أمره »(٢٩) .

الفصل الثانى

الملك الفيلسوف

أشوكا — مرسوم التسامح — أشوكا يرسل بعوثا دينية
فشله — نجاحه

كان الذى خلف « تشاندرا جوپتا » فى الحكم هو « بندوسارا » وهو رجل ذو نزعات عقلية لا تخفى ؛ فيقال إنه طلب إلى « أنتيخوس » ملك سوريا أن يبعث إليه بفيلسوف إغريقى ، وكتب إليه قائلا إنه على استعداد أن يدفع ثمناً عالياً لفيلسوف إغريقى من الطراز الصحيح(٣٠) ؛ ولكن « أنتيخوس » لم يستطع إلى إجابة الطلب سبيلا ، لأنه لم يجد فيلسوفاً يونانياً معروضاً للبيع ؛ ثم شاءت المصادفة أن تعوض « بندوسارا » خيراً . فجعلت له من ابنه فيلسوفاً .

وتولى « أشوكا ڤاردانا » العرش سنة ٢٧٣ ق . م . فوجد أنه يشمل بسلطانه إمبراطورية أوسع رقعة من أى قطر حكمه فى الهند حاكم من قبله : فهو يشمل أفغانستان وبلوخستان ، وكل الهند الحديثة إلا طرفها الجنوبى — وهو ما يسمى « بأرض تاميل » ، ولبث حيناً من الدهر يحكم على غرار جده « تشاندرا جوپتا » ، أى لبث يحكم بلاده فى قسوة ، لكنه يحكمها حكماً جيداً ، فيحدثنا « يوان تشوانج » الرحالة الصينى الذى أنفق أعواماً طوالا فى الهند إبان القرن السابع الميلادى ، بأن السجن الذى كان قائماً فى عهد « أشوكا » شمالى العاصمة ، لم يزل يذكره الناس فى الهند جيلا عن جيل باسم « جحيم أشوكا » ؛ إذ أنبأه المنبئون أن كل أنواع العذاب والتعذيب التى تشتمل عليها الجحيم الحقيقية ، قد استعملت فعلا فى ذلك السجن عقاباً للمجرمين ، بل إن الملك قد أضاف إلى تلك الأنواع التقليدية من عذاب الجحيم ، مرسوماً بأن كل من يدخل ذلك الجب المخيف ، لا يجوز له قط أن يخرج منه حياً ؛ ولكن حدث ذات يوم أن ألقى فى ذلك

السجن قديس بوذى بغير أن يكون هناك ما يبرر ذلك السجن ، فقذفوا به فى إناء كبير فيه ماء ساخن ، فأبى الماء أن يغلى بما فيه ؛ فأرسل السجان بالنبأ إلى « أشوكا » ، وجاء « أشوكا » ورأى وأخذه العجب ؛ ولما استدار الملك ليأخذ طريقه إلى خارج السجن ؛ ذكّره السجان بأمره ، قائلا إنه لا يجوز له أن يغادر السجن حياً ؛ فحزّت هذه الملاحظة فى نفس الملك بقوتها ، وأمر بالسجان أن يقذف فى إناء الماء الساخن .

ويقال إن « أشوكا » لما وصل إلى قصره ، نال من نفسه انقلاب عجيب ؛ وأمر من فوره أن يُهدَم السجن وأن يخفف قانون العقوبات ؛ وفى نفس الوقت جاءه النبأ بأن جنوده قد ظفروا بانتصار باهر على قبيلة « كالنجا » الثائرة ، وأنهم قد فتكوا بآلاف من الثائرين ، وأسروا منهم عدداً كبيراً ؛ فجعل أشوكا عندئذ يعانى لذعات ضميره كلما طاف برأسه كل هذا « العنف والتقتيل وإبعاد الأسرى عن ذويهم » فأمر أن يطلق سراح الأسرى ، وردّ إلى قبيلة « كالنجا » أرضها ، وأرسل إلى أهلها اعتذاراً لم يسبق له فى التاريخ مثيل ، ولم يقلده من بعده إلا القليل ؛ وبعدئذ التحق بالطائفة البوذية ، وليس مسوح الرهبان حيناً ، وأبطل الصيد وأكل اللحم ، واصطنع « السبيل الشريفة ذات الإرشادات الثمانية »[٣١] .

وإنه ليستحيل علينا الآن أن نقول كم من هذه الأنباء قد اختلقه الخيال اختلاقاً ، وكم منها تاريخ صحيح ؛ كما يستحيل علينا — والشقة بيننا وبين ذلك العهد بهذا البعد — أن نرى الدوافع التى حفزت الملك إلى ما فعل ؛ فيجوز أنه رأى البوذية تتسع انتشاراً ، وظن أن تعاليمها من تسامح وهدوء تصلح تشريعاً مفيداً لشعبه ، فتوفر على الدولة عدداً لا يحصى من رجال الشرطة ؛ وفى العام الحادى عشر من حكمه ، أخذ يصدر مرسومات هى أعجب ما عرفناه فى تاريخ الحكومات ؛ وأمر أن تنقش هذه المرسومات على الصخور وعلى الأعمدة

فى عبارة بسيطة وباللهجات التى يفهمها الناس ، حتى يتسنى لكل هندى يعرف القراءة أن يفهم فحواها ؛ ولقد عثرنا على « مرسومات الصخور » فى كل جزء من أجزاء الهند تقريباً ، ولا تزال عشرة أعمدة باقية فى مكانها ، وعرفنا أماكن عشرين أخرى ؛ وتقرأ هذه المرسومات فتجد أن الإمبراطور يوافق على العقيدة البوذية بخذافيرها ، ويطبقها فى شأن من شئون الناس هو آخر ما تتوقع لها أن تطبق فيه وأعنى السياسة ؛ وشبيه بهذا أن تعلن إمبراطورية حديثة فجأة أنها صممت منذ الآن فصاعدا أن تتبع المسيحية فى سياستها .

وعلى الرغم من أن هذه المرسومات بوذية العقيدة ، فهى لا تبدو لنا دينية خالصة ؛ فهى تفرض وجود حياة آخرة ، وبهذا ترى كيف أنه لم يلبث تشكك بوذا أن زال ليحل محله عند أتباعه إيمان ، لكنها إلى جانب ذلك لا تورد فى نصوصها عبارة تدل على العقيدة بإله مشخّص ، بل لا تذكر الله فى نصوصها إطلاقاً[٣٢] ، كلا ، ولا هى تذكر كلمة واحدة عن بوذا فهذه المرسومات لا تعنى باللاهوت ؛ فرسوم « سارنات » يطالب الناس بالسير على مقتضى قواعد الدين ، ويضع عقوبات لمن يشقّون عليها عصا الطاعة[٣٣] ، أما سائر المرسومات فهى لا تنى تذكر مرة بعد مرة ضرورة التسامح الدينى ؛ فعلى المرء أن يُحسن إلى كهنة البراهمة كما يحسن إلى كهنة البوذيين سواء بسواء ؛ ولا ينبغى لأحد أن يسىء بالقول الى عقيدة من العقائد ؛ ويعلن الملك أن كل أفراد شعبه بمثابة أبنائه الذين يحنو عليهم ، فهو لن يفرق بينهم بسبب اختلافهم فى العقيدة[٤٣] ، فهذا هو « مرسوم الصخر » رقم ١٢ يتحدث بما يكاد أن يكون معاصراً لنا من حيث سداد رأيه :

« إن جلالة الملك المقدس الرحيم يقدم إجلاله للناس من شتى المذاهب ، سواء فى ذلك الزاهدون أو أصحاب الأسَر ، وهو يقدم إجلاله هذا بالهدايا وغيرها من مختلف ألوان التوقير .

على أن جلالة الملك المقدس لا تعنيه كثيراً هذه الهدايا وهذا التوقير الظاهر ، بقدر ما يعنيه أن ينمو فى كل هذه العقائد لبُّها وجوهرها ؛ ونمو هذا الجوهر وذلك اللب إنما يكون بطرائق شتى ، لكن أساسها جميعاً هو ضبط اللسان عن الكلام ، وأعنى بذلك ألا يبجل المرء عقيدته وألا يحط من شأن عقيدة غير عقيدته إلا بما يمليه العقل ؛ إن الحط من شأن العقائد الأخرى لا ينبغى أن يكون إلا لأسباب عقلية معينة ، ذلك لأن عقائد الناس على اختلافها جديرة بالاحترام لهذا السبب أو ذاك .

وبمثل هذا التصرف ، يرفع المرء من عقيدته ، وينفع فى الوقت نفسه سائر العقائد ؛ وبالتصرف المضاد لهذا ، يؤذى المرء عقيـــدته ويضر عقائد الناس . . . . إن انسجام الأفراد أمر عظيم » .

هذا إلى أن « مرسوم العمود الثانى » يلقى لنا ضوءاً أكثر على المقصود من « جوهر الموضوع » — وهى العبارة التى وردت فى المرسوم الذى ذكرناه الآن — إذ يقول : « إن قانون التقوى شىء جميل ، لكن مم يتكون قانون التقوى ؟ يتكون من هذه الأشياء : قليل من عدم التقوى ، وكثير من الأفعال الخيّرة ، والرحمة ، والإحسان ، والصدق ، والصفاء » ؛ ولكن يضرب « أشوكا » المثال لما يريد ، أمر موظفيه فى كل مكان أن ينظروا إلى الناس نظرتهم إلى أبنائهم ، وأن يعاملوهم بالصبر والحسنى ، فلا يعذبوهم ولا يسجنوهم بغير مبرر معقول ؛ وأمر موظفيه أن يقرأوا هذه الإرشادات قراءة دورية على الشعب[٣٥] .

فهل كان لهذه المرسومات الخلقية أثر كائناً ما كان فى إصلاح سلوك الناس ؟ يجوز أنها ساعدت على نشر فكرة « الأَهِمْسا » — وهى عدم قتل الحيوان — كما شجعت على الامتناع عن أكل اللحم وشرب المسكرات بين الطبقات العليا من أهل الهند[٣٦] ؛ ويعتقد « أشوكا » اعتقاداً جازماً — شأنه فى ذلك شأن المصلحين — أن لوعظه المنقوش على الحجر أبلغ الأثر ؛ وهو يعلن فى « مرسوم الصخر » رقم ٤ ، أنه لمس بالفعل نتائج طيبة لمرسوماته ، وربما أعان ملخصه على توضيح أساس مذهبه :

أما وقد اصطنع صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة أسباب التقوى فى حياته ، فقد سكتت أصداء طبول الحروب ليهتز الهواء بأصداء القانون ... لقد امتنع الناس اليوم ، بفضل قانون التقوى الذى سنه صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة الملك ، عن ذبح الكائنات الحية ليقدموها فى قرابينهم ، أكثر من امتناعهم عن ذلك من قبل ، امتنعوا عن قتل الأحياء ، وسلكوا إزاء أقربائهم سلوكاً فاصلا ، وكذلك إزاء البراهمة ، وأصبحوا يستمعون لما يأمرهم به آباؤهم وأمهاتهم ومن هم أكبر منهم سناً ، على هذا النحو — وعلى غيره من الأنحاء الكثيرة — ازداد إقبال الناس فوق هذه الزيادة .

إن أبناء صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة الملك ، وأحفاده وأحفاد أحفاده ، سيعملون على زيادة اصطناع الناس لقانون التقوى ، زيادة تطرد إلى يوم الدين » .

لكن الملك الصالح قد بالغ فى تقوى شعبة وولاء أبنائه ، أما هو نفسه فقد بذل مجهوداً عظيما فى سبيل الديانة الجديدة ، فجعل من نفسه رئيساً للطائفة البوذية ، وأجزل لها العطايا ، وشيد لها ثمانية وأربعين ألفاً من الأديرة لرجالها(٣٧) وبنى باسمها فى أرجاء مملكته كلها مستشفيات للإنسان والحيوان(٣٨) وأرسل مبشرين بالعقيدة البوذية إلى أجزاء الهند جميعاً وإلى جزيرة سيلان ، بل أرسل هاتيك البعوث إلى سوريا ومصر واليونان(٣٩) حيث يحتمل أن تكون قد هيأت الطريق هناك للأخلاق المسيحية(٤٠) ولم يمض بعد وفاته إلا زمن قصير حتى غادرت بعوث المبشرين بلاد الهند ليعظ رجالها بالتعاليم البوذية فى التبت والصين ومنغوليا واليابان ، وبالإضافة إلى هذا النشاط الدينى ، توجه « أشوكا » بحماسة نحو إدارة بلاده فى شئونها الدنيوية ، فكان يطيل من ساعات العمل فى يومه ، ولم تكن الحوائل لتحول بينه وبين معاونيه ، فلهؤلاء أن يتصلو

به فى شئون الدولة فى أى ساعة شاءوا[١٤١] .

ونقيصته البارزة هى الأنانية ، فمن العسير أن تكون متواضعاً ومصلحاً فى آن معاً ، إن احترامه لنفسه يسطع فى كل مرسوم من مراسيمه ، مما يجعله أخاً « لمرقص أورليوس »(*) فى شتى الوجوه ، ولم يستطع أن يدرك أن البراهما كانوا يمقتونه ، ويتربصـــون به الدوائر ليفتكوا به ، كما فتك كهنة طيبة بأخناتون قبل ذلك بألف عام ، ولم يقتصر مقته على البراهمة الذين اعتادوا ذبح الحيوان من أجل أنفسهم ومن أجل آلهتهم ، بل جاوزهم إلى ألوف مؤلفة من الصيادين والسماكين الذين كرهوا المراسيم التى فرضت كل هذه القيود القاسية على قتل الحيوان ، حتى الفلاحون أخذوا يجأرون بالشكوى من الأمر الصادر « بألا يحرق قش الغلال خشية أن تحترق معه الكائنات الحية الكامنة فيه »[١٤٢] ، فنصف الشعب فى الإمبراطورية كان ينتظر موت « أشوكا » كما يرقب الإنسان تحقيق الأمل .

ويروى لنا « يوان تشوانج » أن رواة البوذيين يتناقلون النبأ بأن « أشوكا » فى أخريات أعوامه ، أكره على النزول عن عرشه ، على يدى حفيده الذى فعل ما فعله بمعونة رجال البلاط ؛ وحرم الملك كل سلطانه شيئاً فشيئاً ، ووقف تيار الهدايا التى كان يمنحها للطائفة البوذية ، بل إن ما كان يسمح به « لأشوكا » من أشياء ، حتى الطعام ، نقص مقداره ، حتى بلغت به الحال أن أصبح نصيبه من الطعام فى اليوم نصف ثمره من ثمار « الأمالاكا » ؛ ونظر الملك إلى نصف الثمرة نظرة حزينة ، ثم أرسلها إلى إخوانه البوذيين قائلا إنها كل ما يملك مما يستطيع تقديمه إليهم[١٤٣] ، لكن حقيقة الأمر هى أننا لا ندرى شيئاً عن أعوامه الأخيرة ، بل لا ندرى فى أى سنة وافته منيته ؛ ولم يمض بعد موته إلا مدى جيل واحد ، حتى كانت إمبراطوريته — كإمبراطورية أخناتون — قد تقوض بنيانها ، وذلك أنه لما تبين أن نفوذ العرش فى مملكة « مجاذا » كانت تسنده

(*) حاكم رومانى حكيم . (المعرب)

قوة الدفع القديمة أكثر مما تدعمه إدارة قائمة على قوة الحاكم ، فقد أخذت الدول التابعة له تعلن انسلاخها ، دولة فى إثر دولة ، عن ملك الملوك فى « پاتاليپترا » ؛ نعم إن سلالة « أشوكا » لبثت تحكم « مجازا » حتى القرن السابع الميلادى ، لكن أسرة « موريا » الحاكمة التى أنشأها « تشاندرا جوپتا » بلغت ختامها حين قتل الملك « برهادراذا » ، وإن ذلك لدليل على أن الدول لا تبنى على المثل العليا ، إنما ينهض بنيانها على طبائع الناس .

منى « أشوكا » بالفشل السياسي ، ولو أنه من ناحية أخرى قد أدى مهمة من أعظم المهام فى التاريخ ، ففى القرنين التاليين لموته ، انتشرت البوذية فى أرجاء الهند ، وبدأت غزوها لآسيا غزواً لا تراق فيه الدماء ؛ فإذا رأيت إلى يومنا هذا وجه ، « جوتاما »(*) الهادئ يأمر الناس من « كاندى » فى سيلان إلى « كاماكورا » فى اليابان ، أن يعامل بعضهم بعضاً بالحسنى ، وأن يحيوا بالسلام ، فاعلم أنه مما أدى إلى ذلك أن حاكماً ، وإن شئت فقل قديساً ، كتب له يوماً أن يتربع على عرش الهند .

(*) هو بوذا . (المعرب)

الفصل الثالث

العصر الذهبي فى الهند

عصر غروات – ملوك كوشان – إمبراطورية جوپتا – رحلات
« فا – هين » – نهضة الأدب – قبائل الهون فى الهند – هرشا
الكريم – رحلات يوانج تشوانج

منذ وفاة « أشوكا » إلى قيام إمبراطورية « جوپتا » – وهى مدة تكاد تبلغ ستمائة سنة – تقل النقوش والوثائق الهندية قلة تجعل تاريخ هذه الحقبة يضطرب بالغموض(٤٤) ؛ وليس هو بالضرورة عصراً مظلماً لقلة علمنا بتاريخه ، فقد ظلت به جامعات عظيمة مثل جامعات « تاكسيلا » قائمة تنشر العرفان ، كما أنه حدث فى الجزء الشمالى الغربى من الهند إبان تلك الفترة أن ازدهرت حضارة فى إثر غزوة الإسكندر ، بتأثير الفرس فى فن العمارة ، واليونان فى فن النحت ؛ ففى القرنين الأول والثانى قبل المسيح ، نزحت جموع من السوريين واليونان والسُّكيثت إلى البنجاب ، ففتحوه وأقاموا فيه هذه الثقافة « اليونانية البكترية » التى ظلت هناك ما يقرب من ثلاثمائة عام : وفى القرن الأول مما تواضعنا فيما بيننا نحن الغربيين أن نسميه بالعصر المسيحى .

استولت قبيلة كوشان من قبائل أواسط آسيا ، وهى قبيلة تصلها وشائج القربى بالأتراك ، استولت هذه القبيلة على « كابل » ، واتخذتها عاصمة نشرت منها نفوذها فى أرجاء الجزء الشمالى الغربى من الهند ومعظم آسيا الوسطى ؛ فتقدمت الفنون والعلوم فى عهد أعظم ملوكها « كانشكا » ، فهاهنا أنتج النحت « اليونانى البوذى » مجموعة من أروع آياته ؛ كما أقيمت مبانى جميلة فى « پشاور » و « تاكسيلا » و « ماثورة » وكذلك تقدم « تشاراكا » بفن الطب ؛ ووضع « ناجارچونا » و « اشڤاغوشا » الأسس التى قام عليها أحد المذاهب البوذية – هو مذهب

ماهايانا ، ومعناها العربة الكبرى — الذى ساعد « جوتاما »(*) (على كسب الصين واليابان فى صف مذهبه ؛ وكان « كانشكا » متسامحاً مع كثير من الديانات ، وجرّب بنفسه كثيراً من الآلهة يعبدها ، حتى انتهى به الأمر أخيراً إلى اختيار البوذية الجديدة الأسطورية التى جعلت من بوذا إلها ، والتى ملأت أجواز السماء ببوذوات منتظرة وقديسين من أشباه بوذا ؛ ودعا إلى انعقاد مجلس عظيم من رجال اللاهوت البوذى ، ليصوغوا هذه العقيدة فيتسنى نشرها فى بلاده ، وأوشك أن يكون « أشوكا » آخر فى عمله على نشر العقيدة البوذية ، ودوّن هذا المجلس قواعد بلغ عددها ثلاثمائة ألفاً ، وهبط بالفلسفة البوذية إلى حاجات العاطفة عند النفس العادية ، ورفع بوذا نفسه إلى منزلة الآلهة .

وكان « تشاندرا جوپتا الأول » (وهو غير تشاندرا جوپتا موريا على الرغم من اتفاقهما فى الاسم والعدد الترتيبى) قد أنشأ حينئذ أسرة « جوپتا » الحاكمة فى مجاذا ، التى قوامها ملوك من أهل البلد أنفسهم ؛ وأتيح لخلفه فى الحكم ، وهو « سامُدْرا جوپتا » أن يحكم خمسين عاماً فيجعل من نفسه ملكاً فى طليعة ملوك الهند فى تاريخها الطويل ؛ وكان مما فعله أن نقل عاصمة الحكم من « پاتاليپترا » إلى « أيوذيا » — التى هى الموطن القديم لـ « راما » — ذلك الشخص الأسطورى — ثم بعث بجيوشه الفاتحة ومحصّلى ضرائبه إلى بلاد البنغال وأسام ونبال والهند الجنوبية ، وأنفق ماتدفق عليه من أموال تلك الأقطار التابعة له ، فى النهوض بالأدب والعلم والدين والفنون ؛ بل برع هو نفسه ، فيما تخلل الحروب من فترات السلم ، فى الشعر والموسيقى ؛ وجاء بعده ابنه « ڤِكْرامادَتْيا » (ومعناها شمس القوة) فوسّع من رقعة هذه الفتوحات الحربية والغزوات العقلية وأيد أديب المسرحية « كالداسا » وجمع حوله فى عاصمته « يوچين » طائفة ممتازة من الشعراء والفلاسفة والفنانين والعلماء والباحثين

(*) هو بوذا . (المعرب)

حتى لقد بلغت الهند من التقدم فى عهد هذين الملكين ذروة لم تكن قد جاوزتها منذ بوذا ، كما بلغت فى وحدتها السياسية مبلغاً لم تبلغ مثيله إلا فى عهد « أشوكا » وعهد « أكبر » .

ونستطيع أن نتتبع الخطوط الرئيسية فى مدنية « جوپتا » من الوصف الذى قدمه « فاهين » عن زيارته للهند فى مستهل القرن الخامس الميلادى ؛ وهو أحد البوذيين الكثيرين الذين جاءوا من الصين إلى الهند إبان هذا العصر الذهبى من تاريخها ؛ بل إن هؤلاء الحجاج الدينيين كانوا على الأرجح أقل عدداً من التجار والسفراء الذين طفقوا حينئذ — رغم مايحيط بالهند من حواجز الجبال — يفدون إليها وقد اشتملها السلام ، يفدون إليها من الشرق والغرب ، بل يفدون إليها من روما النائية ؛ وكانوا فى وفودهم إليها يجتلبون معهم عاداتهم وأفكارهم ، فسرعان ما تكون هذه الأفكار وتلك العادات الواردة من خارج حافزاً للبلاد على التغيير فى أوضاعها ؛ جاءها « فا — هين » فألفى نفسه ، بعد أن تعرضت حياته للخطر أثناء مروره فى الجزء الغربى من الصين ، آمنا فى الهند أمناً لا يأتيه الخطر من أية ناحية من نواحيه ، فجعل يتنقل فى طول البلاد وعرضها ، دون أن يصادفه من يعتدى عليه بالإيذاء أو بالسرقة(٤٥) ؛ وهو يحدثنا فى يومياته كيف استغرق فى طريقه إلى الهند ستة أعوام ، ثم عاد إلى وطنه فى الصين عن طريق سيلان وجاوه فى ثلاثة أعوام(٤٦) .

وإنه ليصف وصفاً يعبر به عن إعجابه بما كان للشعب الهندى من ثروة وازدهار وفضيلة وسعادة ، ومن حرية دينية واجتماعية ، ولقد أدهشته المدن الكبرى بكثرتها وحجمها وعدد سكانها ، كما أدهشته المستشفيات المجانية وغيرها من مؤسسات الإحسان التى امتلأت بها أرجاء البلاد(*) ؛ وعجب

(*) سبقت هذه المستشفيات أول مستشفى شهدته أوروبا بثلاثة قرون ، وأعنى به « ميزون ديبه Maison Dieu » الذى بنى فى باريس فى القرن السابع الميلادى(٤٧) .

لعدد الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات والأديرة ، وللقصور الملكية الماثلة بعظمتها وفخامتها[٤٨] ؛ وإنك لتقرأ وصفه فلا تجد فيه إلا مدينة فاضلة (يوتوپيا) ، إذا استثنيت عاداتهم فى قطع الأيدى لبعض الآثمين .

« الناس كثيرون وسعداء ، فليس ثمة ما يلزمهم بتسجيل أفراد أسرهم ، ولا يضطرهم إلى المثول بين أيدى القضاة أو الاستماع إلى ما يسنّون من قوانين ؛ ولم يكن بينهم من يدفع شيئاً سوى زراع الأرض الملكية ، فهؤلاء يدفعون جزءاً من غلة الأرض ؛ ولمن شاء أن يسافر أو يقيم حيث شاء ؛ والملك يحكمهم لا يقتل منهم أحداً ولا ينزل بأحد منهم عقاباً ، ولا يطالب المجرمون بأكثر من غرامة ... وحتى فى الحالات التى يتهم فيها الآثم بالثورة المتكررة التى يشق بها عصا الطاعة ، لم يكن يُحكم عليه بأكثر من قطع يده اليمنى ... واذهب حيث شئت من أرجاء البلاد جميعاً فلن تجد أحداً يقتل كائناً حياً ، أو يأكل البصل أو الثوم ، إذا استثنيت قبيلة « شاندالا » ... إنهم فى تلك البلاد لا يربون الخنازير والطيور الداجنة ولا يبيعون الماشية حيَّة ، فلست ترى فى أسواقهم دكاناً لقصّاب ولا حانوتاً لبيع المسكرات »[٤٩] .

ولم يكد « فا ــ هين » يلحظ أن البراهمة ، الذين كانوا من المغضوب عليهم لدى أسرة موريا الحاكمة منذ عهد « أشوكا » قد أخذوا يزدادون من جديد فى ثرائهم ونفوذهم ، فى ظل التسامح الذى أبداه ملوك أسرة « جوپتا » ، فأحيوا تقاليدهم الدينية والأدبية التى كانت قائمة قبل العهد البوذى ، وأنهم كانوا يُطورون اللغة السنسكريتية بحيث تصبح هى لغة التفاهم المشتركة بين العلماء فى أنحاء الهند كلها : فقد كتبت الملحمتان الهنديتان العظميان ، « ماهابهاراتا » و « رامايانا » فى صورتهما الحاضرة[٥٠] فى ظل هؤلاء الملوك وبرعايتهم ؛ وكذلك بلغ الفن البوذى فى عهد أسرتهم ذروة مجده فى النقوش الموجودة بكهوف « أجانتا » ، وفى رأى عالم هندى معاصر أن « مجرد هذه الأسماء : « كاليداسا » و « فاراهاميهيرا » و « جنافارمان » و « ڤاشوبانْدو » و « آرياباتا »

و« براهما جوپتا » يكفى ليجعل عصرهم ذاك أوج الثقافة الهندية »(٥١) ويقول « هاڤِل » : « فى وسع المؤرخ المحايد أن يقول فى غير إجحاف إن أعظم فوز ظفرت به الإدارة البريطانية للهند هو أن تعيد لتلك البلاد كل ما كانت قد بلغته فى القرن الخامس الميلادى »(٥٢) .

لكن هذا العصر الزاهر للثقافة القومية قد اعترضته موجة من غزوات الهون التى كانوا يجتاحون بها إذ ذاك آسيا وأوروبا ، فيدمرون حضارة الهند وحضارة روما على السواء حيناً من الدهر ؛ ففى الوقت الذى كان يجتاح فيه « أتيلا » ربوع أوربا ، كان « تورامانا » يستولى على « مالْوَا » كما كان « ميهراجولا » الفظيع يُطَوِّح بملوك أسرة « جوپتا » من فوق عرشهم ؛ وهكذا لبثت الهند قرناً كاملا تتدهور إلى عبودية وفوضى ؛ وبعدئذ جاء فرع من سلالة أسرة « جوپتا » ، هو فرع « هارشا — فاردانا » ، وعاد فاستولى من جديد على الهند الشمالية ، وابتنى عاصمة له فى « كانوج » فأتاح لتلك المملكة الفسيحة سلاماً وأمناً مدى اثنين وأربعين عاماً ، ازدهرت فيها مرة أخرى فنون البلاد وآدابها ؛ وتستطيع أن تصور لنفسك عاصمتهم تلك « كانوج » من حيث اتساعها وفخامتها وازدهارها ، إذا علمت هذه الحقيقة الآتية التى تعز على التصديق ، وهى أن المسلمين حين أتوا عليها بالتخريب(*) (سنة ١٠١٨ ميلادية) دمروا عشرة آلاف معبد(٥٣) ، ولم تكن حدائقها العامة الجميلة وأحواش السباحة المجانية فيها ، إلا جزءاً ضئيلا من حسنات الأسرة الجديدة ؛ وكان « هارشا » نفسه أحد هؤلاء الملوك القلائل الذين يخلعون على الملكية مظهراً — ولو إلى حين — بحيث تبدو أفضل ألوان الحكم على اختلافها ؛ فقد كان رجلا له سمره وله جوانب كثيرة من الثقافة ، فقرض شعراً وأنشأ مسرحيات لاتزال تقرأ فى الهند حتى يومنا هذا ، على أنه لم يسمح لهذه الصغائر أن تتدخل فى إدارته الحازمة لمملكته ، وفى ذلك يقول « يوان تشوانج » : « كان لايعرف الشعب ، ويرى اليوم أقصر من أن يسدّ له مطالبه ، حتى لقد نسى النوم فى إخلاصه لأعمال الخير التى كان يقوم بإنشائها »(٥٤) ولقد بدا فى ديانته عابداً

(*) هل كان ذلك « تخريبا » أم نشراً لدين جديد ؟ (المعرب)

لـ « شيڤا » لكنه تحول بعدئذ إلى العقيدة البوذية ، وأصبح شبيهاً بـ « أشوكا » فى حسناته التى صدر فيها عن تقواه ؛ فحرم أكل الحيوان ، وأقام محطات ينزل بها المسافرون فى أرجاء ملكه جميعاً ، وأنشأ ألوف الأضرحة البوذية على ضفاف الكنج .

ويروى لنا « يوان تشوانج » — وهو أشهر البوذيين من أهل الصين — وقد زار الهند ، أن « هارشا » كان يعلن كل خمسة أعوام عن حفل عظيم لأعمال البر ، كان يدعو إليه كل رجال الديانات على اختلافها ، كما يدعو إليه كل الفقراء والمعوزين فى مملكته ، وكانت عادته فى هذا الاجتماع أن يحسن على ملأ من الناس بكل الفائض عن حاجته فى خزانة الدولة منذ الاحتفال الخمسىّ الماضى ؛ ولكم دهش « يوانج » لما رأى مقداراً كبيراً من الذهب والفضة والنقود والجواهر والأثواب الدقيقة النسج والغلالات الموشاة ، مكدساً أكواماً فى ميدان مكشوف يحيط به عشرات من الأروقة يضم كل منها ألف شخص ، وكانت الأيام الثلاثة الأولى تخصص للطقوس الدينية ، ثم يبدأ توزيع الصدقات فى اليوم الرابع (لو أخذنا بما يقوله هذا الحاج وإنه من العسير تصديقه) ، وكانوا فى ذلك الحفل يطعمون عشرة آلاف من الرهبان البوذيين ، ويقدمون لكل منهم لؤلؤة وثياباً وأزهاراً وعطوراً ومائة قطعة من الذهب ، وبعدئذ يعطون البراهمة من الصدقات ما يكاد يبلغ هذا المقدار ، ثم يعطون الجانتييين صدقاتهم ، ثم يعقبون على ذلك بسائر العقائد الدينيه وبعد ذلك يحسنون على الفقراء واليتامى الذين جاءوا من كل ركن من أركان المملكة من غير رجال الدين ، وكان التوزيع أحياناً يستغرق ثلاثة شهور أو أربعة ؛ وفى ختام الحفل يخلع « هارشا » عن نفسه أرديته الثمينة ومجوهراته ليضيفها إلى الصدقات(٥٥) .

وتدلنا مذكرات « يوان تشوانج » على أن الروح العقلى الذى ساد ذلك العصر كان روحاً من نشوة دينية ؛ وهو يرسم لنا بمذكراته صورة رائعة تنم عن شهرة الهند إذ ذاك فى سائر الأقطار ؛ فهذا الصينى الأرستقراطى يغادر حياته المترفة الهينة فى بلده النائى « تشانجان » ليعبر الصين الغربية التى لم تبلغ من الحضارة إلا مبلغاً ضئيلا ، ويمر بطشقند وسمرقند (التى كانت مدينة زاهرة إذ ذاك) ، ثم يتسلق الهملايا ليدخل الهند ، يقيم ثلاثة أعوام يدرس دراسة المتحمس فى جامعة الدير بمدينة « نالأندا » ؛ ولما كان « يوان تشوانج » ذائع الصيت باعتباره عالماً وباعتباره إنساناً له مكانته الاجتماعية ، فقد توجه إليه أمراء الهند بالدعوات ؛ وسمع « هارشا » أن « يوان » كان فى بلاط « كومارا » ملك أسام ؛ فدعا « كومارا » إلى زيارة « كانوج » مستصحباً « يوان » ؛ فرفض « كومارا » دعوته قائلا إن « هارشا » يستطيع أن يفصل رأسه لكنه لا يستطيع أن يأخذ منه ضيفه ؛ فأجابه « هارشا » قائلا : « إننى لا أقلقك إلا ساعياً فى سبيل رأسك » وتجاه « كومارا » وعندئذ أعجب « هارشا » بعلم « يوان » وأدبه ، وأمر بأعيان البوذيين فعقدوا اجتماعاً أنصتوا فيه إلى « يوان » وهو يعرض عليهم لمذهب « ماهايانا » ، « وعلّق « يوان » قائمة بآرائه على باب الرواق الذى أعد للاجتماع والنقاش ، وأضاف إلى تلك الآراء حاشية على طريقة ذلك العصر ، يقول فيها : « إذا وجد أحد من الحاضرين هنا غلطة فى تسلسل آرائى ، واستطاع تفنيد قول من أقوالى ، فله أن يبتر رأسى عن جسدى » ، ودامت المناقشة ثمانية عشر يوماً ، استطاع خلالها « يوان » (هكذا يقول يوان نفسه) أن يرد كل اعتراض ، وأن يصد كل الزنادقة (وهناك رواية أخرى تقول إن معارضيه ختموا الاجتماع بإشعال النار فى الرواق[٥٦]) ؛ وبعد مغامرات كثيرة التمس « يوان » طريقه عائداً إلى بلده « تشانجان » حيث عمل امبراطورها المستنير على صيانة الآثار البوذية فى معبد فاخر ، تلك الآثار البوذية التى أحضرها معه هذا الرحالة الورع ؛

الذى يشبه « ماركوبولو » فى رحلاته ؛ ثم عين له طائفة من العلماء يعاونونه على ترجمة المخطوطات التى اشتراها من الهند[٥٧] .

ومع ذلك كله ، فقد كان هذا المجد الذى ازدهر به حكم « هارشا » مصطنعاً زائلا ، لأنه كان يعتمد على ملك واحد بما له من قدرة وسخاء ، والملك يموت كما يموت البشر ؛ فلما مات ، اغتصب عرشه مغتصب وأبدى من الملكية وجهها الأقتم ، وجاءت فى إثره الفوضى ، ثم دامت ما يقرب من ألف عام عانت الهند خلالها عصورها الوسطى — كما حدث لأوروبا — واجتاحها البرابرة ، كما غزاها الغزاة ومزقوها وخربوها ، فما عرفت للسلم والاتحاد طعماً إلا حين أدركها « أكبر » العظيم .

الفصل الرابع

أبناء راجپوتانا

ساموراى الهند – عصر الفروسية – سقوط شيتور

كانت ملحمة راجپوتانا بمثابة السراج الذى أضاء « العصر المظلم » أمداً قصيراً ؛ ففى ذاك العهد قام فى دويلات « موار » و « ماروار » و « عنبر » و « بيكانر » وكثير غيرها مما يرنّ بأسماء كهذه رنين النغمات ، قام فى هذه الدويلات شعب خليط ، هو نتيجة تزاوج الوطنيين بالسُّكيّت والهون الغزاة ، وأقام مدينة إقطاعية تحت سلطان طائفة من الأمراء المقاتلين الذين جعلوا همهم فن الحياة أكثر مما جعلوه حياة الفن ، وقد بدأوا بالاعتراف بسلطة الأسرتين الحاكمتين « موريا » و « جوپتا » ، ثم انتهوا بعدئذ إلى الدفاع عن استقلالهم ، ثم الدفاع عن الهند بأسرها فى وجه الجموع المحتشدة من المسلمين الذين جاءوها زاحفين ؛ وكانت قبائل هؤلاء الأمراء تتميز بشهامة عسكرية وشجاعة لا نعهدهما عادة فى أهل الهند(*) ؛ فلو جاز لنا أن تأخذ بما يقوله عنهم مؤرخهم « تود » المعجب بهم ، فكل رجل من رجالهم كان « كشاتريًّا » جريئاً (الكشاترية هى طبقة المقاتلين) وكل امرأة من نسائهم كانت بطلة مقدامة ؛ بل إن اسم هذه القبائل ، وهو (اهل راچپوت) معناه « أبناء الملوك » ، فإن رأيتهم أحياناً يطلقون على بلادهم اسم « راچستان » فما ذاك إلا ليصفوها بأنها « مقر العنصر الملكى » .

ولو نظرت إلى أنباء هذه الدويلات الباسلة لرأيت فيها كل ما جرينا على نسبته إلى « عصر الفروسية » من صفات الشجاعة والولاء والجمال والخصومات

(*) لكن راجع ما يقوله « أريان » عن الهند القديمة ، إذ يقول : « إن الهنود فى الحروب كانوا أشجع بكثير من سائر الأجناس التى كانت تسكن آسيا فى ذلك الوقت »(٥٨) .

وقتل بعضهم بالسم والاغتيال والحروب وخضوع المرأة وما إلى ذلك كله من عبث القول وتفخيم الوصف ؛ فيقول « تود » : « إن رؤساء راجپوت يتحلون بكل الفضائل التى عُرف بها الرجل من فرسان الغرب ، ثم هم يفوقونه بكثير فى قدراتهم العقلية[٥٩] » وكان لهم نساء جميلات لم يترددوا فى الموت من أجلهن ، وكانت المجاملة وحدها تحمل هؤلاء النساء على أن يصحبن أزواجهن إلى القبر مصطنعات طقوس قومهم فى هذا الشأن ؛ ومن هؤلاء النسوة فريق كان له حظ من التربية والتهذيب ، كما كان بين الراجات شعراء وعلماء ، حتى لقد شاع بينهم حينا من الدهر ضرب رقيق من ضروب التصوير بألوان الماء على النمط الفارسىّ الوسيط ، ولبثوا قروناً أربعة يزدادون فى ثرائهم حتى بلغوا منه حداً استطاعوا معه أن ينفقوا عشرين مليوناً من الريالات على تتويج ملك الموارين[٦٠] .

وكان موضع فخرهم هو نفسه مأساتهم ، وذلك أنهم كانوا يمارسون القتال على أنه أعلى ما تسمو إليه الفنون ، لأنه الفن الوحيد الذى يليق بالسيد من أهل راجپوت ولقد مكنتهم هذه الروح الحربية من الصمود للمسلمين فى بسالة يسجلها التاريخ(*) ، لكن هذه الروح الحربية نفسها جعلت دويلاتهم الصغيرة على حال من الانقسام والضعف الناشىء من مقاتلة بعضهم بعضاً ، بحيث لم تعد شجاعتهم كلها قادرة على صيانة كيانهم فى نهاية الأمر ؛ وتقرأ ما يقوله « تود » فى وصف سقوط شيتور — وهى إحدى عواصم الراجپوت — فتقرأ وصفاً لا يقل فى خياله الشعرى عن أية أسطورة من أساطير « أرثر » أو « شرلمان » . ولما كان هذا الوصف مستمداً من مصدر واحد ، وهو ما قاله المؤرخون الوطنيون الذين دفعهم إخلاصهم لوطنهم أن يحيدوا عن الصدق

(*) يقول الكونت كيسلرنج عن شيتور : « لن تجد على ظهر الأرض مكاناً شهد ما شهده هذا البلد من بطولة وفروسية وشهامة فى مواجهة الموت »[٦١] .

فيما رووا ، فلا شك أن هذه الأنباء العجيبة ، « أنباء راجستان » ، يجوز أن تكون ذات نزعة أسطورية تقرّبها من « موت أرثر »(*) أو « أنشودة رولان » وفى رواية هؤلاء المؤرخين أن الفاتح المسلم علاء الدين لم يطلب شيتور لذاتها ، بل سعياً للحصول على الأميرة « پودميني »(**) — « وهذا لقب تلقب به من كانت فاتنة بجمالها فتنة ليس بعدها مزيد » — وقد عرض الرئيس المسلم أن يرفع الحصار عن شيتور إذا قبل القائم بالحكم فيها نيابة عن الملك أن يسلم له الأميرة ، فلما رفض طلبه هذا ، عاد علاء الدين فعرض أن ينسحب إذا أتيح له أن يرى « پودميني » ، وأخيراً وافق على الرحيل إذا مكّن له من رؤية « پودميني » فى مرآة ، لكنهم أبوا عليه حتى هذا ، وبدل أن يجيبوا له رجاءه تضافرت نساء شيتور وانضممن إلى صفوف الدفاع عن مدينتهن ، فلما رأى أهل راجپوت زوجاتهم وبناتهم يمتن إلى جوارهم ، لبثوا يقاتلون حتى فنى آخر رجل من رجالهم ، حتى إذا ما دخل علاء الدين المدينة ، لم يجد داخل أبوابها أثراً واحداً من آثار الحياة البشرية ، فقد مات رجالها جميعاً فى ميدان القتال ، وأحرق زوجاتهم أنفسهن مصطنعات تلك الطقوس المخيفة التى كانت تعرف عندهم باسم « جوهور »(٦٢) .

(*) هاتان قصيدتان مشهورتان من نتاج العصور الوسطى فى أوروبا . (المعرب)

(**) هذه القصة لم ترد إلا فى المصادر الهندية ، وإنه لمن الخطأ الادعاء أن مثل هذا الباعث المنحرف كان من دوافع فتح بعض أقاليم الهند . (الإدارة الثقافية)

الفصل الخامس

الجنوب فى أوجه

ممالك الدكن – ڤيجايا ماجار – كرشنا رايا – مدينة
عظمى فى العصر الوسيط – القوانين – الفنون –
الدين – مأساة

كلما تقدم المسلمون فى الهند تراجعت الحضارة الهندية نحو الجنوب خطوة بعد خطوة ، حتى إذا ما دنت هذه العصور الوسطى من ختامها ، كانت الدكن قد باتت بين أرجاء الهند تنتج أسمى ما تنتجه الحضارة الهندية ؛ وكانت قبيلة « شاليوكا » قد استطاعت أن تكوّن نفسها مملكة مستقلة لبثت قائمة حيناً من الدهر ، تمتد عَبْرَ الهند الوسطى ، وكان لها من القوة والمجد فى عهد « پولاكشين الثانى » ما تمكنت به من أن تهزم « هارشا » وأن تجذب إليها « يوان تشوانج » وأن تظفر من « خسرو الثانى » ملك الفرس بسفارة محترمة ؛ وكذلك تمّت فى عهد « پولاكشين » وفى أرض مملكته أعظم التصاوير الهندية ، وأعنى بها نقوش أچانتا ؛ ثم أسقط « پولاكشين » عن عرشه ملكُ الفلاويين الذى لبث حيناً قصيراً أعظم قوة فى الهند الوسطى ؛ وأما فى أقصى الجنوب فقد أقام « الباندياويون » ملكاً فى عهد مبكر يقع فى القرن الأول الميلادى ، ويشتمل على «مدراس» و«تينڤلي» وبعض أجزاء «تراڤانكور» ؛ وقد جعلوا من « مادورا » بلداً من أجمل بلدان الهند فى العصر الوسيط وزينوها بمعبد شامخ وبمئات من الآثار المعمارية الفنية الصغرى ؛ ودار الزمن دورته فإذا هم كذلك يُشَلُّ عروشهم على أيدى « الكوليين » أولا ثم على أيدى المسلمين بعد ذلك ؛ فأما « الكوليون » فقد بسطوا سلطانهم على الجزء الواقع بين « مادورا » و « مدراس » ومن ثم مدوا أرجاءه تجاه الغرب إلى « ميسور » ؛ ويمتد تاريخهم

إلى عهد بعيد فى القِدَم ، إذ ترى اسمهم مذكوراً فى مراسيم « أشوكا » لكننا لا ندرى عنهم شيئاً حتى القرن التاسع حين بدءوا شوطاً طويلا تملؤه الغزوات التى جاءتهم بأموال الجزية من الهند الجنوبية كلها بما فى ذلك جزيرة سيلان ؛ ثم اضمحل سلطانهم وانطووا تحت حكم أعظم الدويلات الجنوبية ، وهى دولة « ڤيجاياناجار »(*) .

إن « ڤيجاياناجار » — وهو اسم يطلق على مملكة وعلى عاصمتها معاً — مَثَلٌ حزين يساق للمجد الذى يعفى عليه النسيان : وقد كانت فى أيام عزها تشتمل على الدويلات التى يحكمها الأهلون اليوم فى جنوبى شبه الجزيرة ، كما تشتمل على ميسور وعلى اتحاد مدراس بكل أجزائه ؛ وحسبك إذا أردت أن تتصور ما كان لها من سلطان وثراء ، أن تتذكر أن ملكها « كرشنارايا » زحف إلى موقعة تاليكونا بجيش قوامه ٧٠٣,٠٠٠ من المشاة و ٣٢,٦٠٠ من الفرسان ، و ٥٥١ فيلا يصحبهم ما يقرب من مائة ألف من التجار والبغايا وغير هؤلاء وأولئك ممن كانوا يصحبون معسكرات الجند فى ذلك العصر إذا ما زحف الجيش فى غزواته(٦٣) وقد حَدَّ من أوتقراطية الملك قَدْرٌ من الاستقلال الذاتى تمتعت به القرى ، كما حَدَّ منها كذلك ملوك كانوا يظهرون آناً بعد آن ، يتميزون من سواهم بعقولهم المستنيرة وقلوبهم الرحيمة .

ولك أن تقارن « كرشنارايا » الذى حكم « ڤيجاياناجار » بمعاصره هنرى

(*) فى هذه المجموعة المتباينة من الممالك التى نكاد ننسى ذكرها اليوم ، ترى فترات من الخلق الأدبى والفنى ، ومن الخلق المعمارى بصفة خاصة ؛ فقد كان لها عواصم غنية وقصور فاخرة وملوك أقوياء ؛ لكننا إزاء الهند برقعتها الفسيحة وبتاريخها الطويل ، لا يسعنا فى هذه الفقرة المزدحمة بذكر الحوادث ، إلا أن نمر برجال كانوا يطون فى عهودهم أنهم سادة الأرض كلها ، لا يسعنا إلا أن نمر برجال كهؤلاء دون أن نذكر أسماءهم ؛ خذ لذلك مثلا « فكرامادتيا » الذى حكم الشاليوكيين مدى نصف قرن (١٠٧٦ — ١١٢٦) فقد بلغ من التوفيق فى حروبه حداً جعله يفكر (مثل نيتشه) فى أن يضع للعالم تاريخاً زمنياً جديداً يقسم التاريخ كله إلى ما قبل حكمه وما بعد حكمه ؛ ومثل هذا الرجل قد أصبح اليوم حاشية تذكر فى هامش الكتاب .

الثامن مقارنة ستكشف لك عن تفوقه على هنرى الثامن الذى ما فتىء محباً للنساء لأنك سترى فيه ملكاً أنفق حياته فى العدل والرحمة ، وبسط كفه بالإحسان الغزير ، وتسامح إزاء الديانات الهندية ، وكان له شغف بالآداب والفنون فأيدها ، وكان كريماً مع من سقط فى يديه من أعدائه فعفا عنهم ولم يمس مدنهم بسوء ، وانصرف بجهده كله حتى الإفراط ، إلى شئون الحكم ، ولقد كتب مبشّر برتغالى — هو دومنجوز پيز سنة ١٥٢٢ — فوصفه بقوله :

« إنه بلغ أقصى ما يمكن لملك أن يبلغه من الهيبة والكمال وهو ذو مزاج بهيج وشديد المرح ، ومن صفاته أنه لا يألو جهداً فى تكريم الأجانب وفى الحفاوة بهم ... إنه حاكم عظيم ورجل يغلب على أخلاقه العدل ، ولكنه يثور بالغضب فجأة حيناً بعد حين . . . وهو بحكم منزلته من أسمى منزلة من سائر الحاكمين ، لما له من جيوش وسعة سلطان ، لكنه فيما يبدو لم يكن فى واقع الأمر يحظى بما كان ينبغى لرجل فى مثل مكانته أن يحظى به ؛ فهو من الشهامة والكمال فى كل شىء بمكان »(٦٤)(*) .

وربما كانت العاصمة التى تأسست سنة ١٣٣٦ أغنى مدينة عرفتها الهند حتى ذلك الزمان ؛ زارها « نيكولوكونتى » حول سنة ١٤٢٠ فقدر محيطها بستين ميلا ، ووصفها « پيز » فقال إنها « فى اتساع روما وتراها العين فترى جمالا خلاباً » ثم أضاف إلى ذلك قوله : « إن بها أحراشاً كثيرة من الشجر وقنوات مائية عدة » ذلك لأن مهندسيها قد أقاموا سداً ضخماً على نهر تنجابادرا وأنشأوا بذلك خزاناً ينتقل الماء منه إلى المدينة بقناة طولها خمسة عشر ميلا ، وقد كان الخزان منحوتاً فى صخر أصم مدى عدة أميال ؛ وقال « عبد الرزاق » الذى شهد المدينة سنة ١٤٤٣ إن فيها « ما لم تر مثيلته فى أى جزء من أجزاء العالم عين ولا سمعت بمثيله أذن » واعتبرها « پيز » « أوفر بلاد الدنيا مؤونة . ففيها من كل شىء وفرة » ويروى لنا أن عدد دورها قد أربى على مائة ألف ،

(*) كان بين هذه المقتنيات المتواضعة اثنتا عشرة ألف زوجة(٦٥) .

يسكنها نصف مليون من البشر ؛ وتراه يدهش لقصر من قصورها كانت فيه غرفة بيت كلها من العاج ؛ « إنها من الثراء والجمال بحيث يكاد يستحيل أن تجد لها ضريباً فى أى مكان آخر »(٦٦) .

ولما تزوج « فيروزشاه » سلطان دلهى من ابنة ملك « ڤيجاياناجار » فى عاصمة هذا الأخير ، فرشت الطرقات لمسافة ستة أميال بالمخمل والحرير ورقائق الذهب وغير ذلك من المواد النفيسة(٦٧) ، لكن أذكر مع ذلك أن كل رحّالة كذاب .

وإذا ما نَفَذْتَ ببصر وراء هذا الستار من الغنى ، وجدت شعباً من عبيد وفَعَلَة يعيشون فى مسغبة وخرافة ، ويخضعون لتشريع اصطنع القسوة الوحشية ليصون بين الناس ضرباً منشوداً من ضروب الأخلاق التجارية ، فكان العقاب يتراوح بين قطع الأيدى أو الأقدام وقذف المذنب إلى الفيلة وجذ رأسه ووضعه حياً على قضيب مدبب ينفذ خلال معدته ، أو تعليقه على مشبك من أسفل ذقنه وتركه هكذا حتى يموت(٦٨) ، وهذه العقوبة الأخيرة كانت تنزل بالمغتصب أو بالسارق الذى يمعن فى سرقته ؛ وكان البغاء مسموحاً به ، تنظمه القوانين بحيث تجعل منه مورداً من موارد العرش ، ويقول « عبد الرزاق » إنه رأى « أمام دار السكة ديوان عميد المدينة الذى قيل عنه إنه يهيمن على اثنى عشر ألفاً من رجال الشرطة ، الذين تدفع لهم رواتبهم . . . مما يجىء من مواخير البغاء ، وإنه لما يعز على الوصف تصوير فخامة هذه الدور وجمال آهلاتها من الفاتكات بالقلوب ، وما لهن من فتنة الحديث وحلاوة الغزل(٦٩) » ، وقد كان للمرأة عندهم منزلة دنيا ، وكان عليها أن تقتل نفسها عند وفاة زوجها ؛ فكانوا يتركونها أحياناً تلقى بنفسها حية فى القبر(٧٠) .

وازدهر الأدب فى عصر « ملوك الرايا » — أى ملوك ڤيجاياناجار —

ازدهر مكتوباً بالسنسكريتية القديمة وبلهجة « تلوجو » التى ينطق بها أهل الجنوب ؛ وكان « كرشنارايا » نفسه شاعراً كما كان راعياً سخياً للآداب ، وإنهم ليضعون أمير شعرائه « آلاسانى پدانا » فى الرعيل الأول من شعراء الهند كلها ؛ وكذلك ازدهر التصوير وفن العمارة ، فشيدت المعابد الضخمة ، وزينت فى كل جزء من أجزائها تقريباً بالتماثيل والنقوش البارزة ؛ وكانت البوذية قد فقدت سلطانها على الناس ، وحل محلها ضرب من البراهمة التى تقدس « ڤشنو » قبل تقديسها لغيره من الآلهة ، وكانت البقرة عندهم مقدسة فلا تمتد إليها أيديهم بالذبح ، ولهم أن يقدموا قرابين من ضروب الماشية الأخرى ومن الطيور الداجنة ، كما كان لهم أن يأكلوا لحوم هذه الصنوف ، وبالجملة كان الدين قاسى الأحكام على حين كانت أخلاق التعامل بين الناس على شىء من التهذيب .

لكن هذا السلطان كله وهذا الترف قد انمحى بين عشية وضحاها ، وأخذ المسلمون الغزاة يشقون طريقهم رويداً رويداً صوب الجنوب ، وتحالف سلاطين « بيجاپور » و « أحمد ناجار » و « جولكوندا » و « بدار » فركزوا قواهم جميعاً ليخضعوا هذا المعقل الأخير الذى تحصن فيه ملوك الهند الوطنيون ، والتقت جيوشهم المتحالفة بجيش « راماراجا » الذى يبلغ عدده نصف المليون فى موقعة « تاليكوتا » وكان الغلب للمغيرين بسبب كثرة عددهم ، ووقع « راماراجا » فى الأسر وقطع رأسه من مرأى من أتباعه ، فدب الرعب فى أنفس هؤلاء الأتباع ولاذوا بالفرار ، ولكن عدداً يقرب من مائة ألف منهم قتل فى طريق الفرار حتى اصطبغت بدمائهم مجارى الماء ؛ وراح الجنود الفاتحون ينهبون العاصمة الغنية ، وكانت الغنائم من الكثرة بحيث « أصبح كل جندى بسيط من جنود الجيوش المتحالفة غنياً بما ظفر به من ذهب ومجوهرات ومتاع وخيام وسلاح وجياد ورقيق[٧١] » ودام النهب خمسة أشهر ، جعل الظافرون خلالها يفتكون بمن لا حول لهم من الأهالى فى وحشية لا تفرق بين إنسان وإنسان ، وراحوا يفرغون المخازن والدكاكين ، ويقوضون المعابد

والقصور ، وبذلوا ما استطاعوا من جهد لإتلاف كل ما تحويه المدينة من تماثيل وتصاوير ؛ وبعدئذ جاسوا خلال الشوارع يحملون المشاعل الموقدة فيشعلون النار فى كل ما يصلح وقوداً للنار ، حتى إذا ما غادروا المدينة آخر الأمر ، كانت « فيجاياناجار » قد باتت خراباً بلقعاً كأنما زلزل زلزالها فما أبقى منها حجراً على حجر ؛ وهكذا كان الدمار فظيعاً لم يُبْقِ على شيء ، يصوّر أدق تصوير غزو المسلمين للهند ، ذلك الغزو الشنيع الذى كان قد بدأ قبل ذلك بألف عام ، وبلغ حينئذ ختام مراحله(*) .

(*) هذه صورة رسمها بالطبع كاتب لا ينظر إلى الموقف نظرة من يحسب حسابا للديانة جديدة تنشر ، فما هو فى رأيه فظاعة وبشاعة قد يكون فى حقيقته أشعة ضوء جديد ينفذ خلال الظلام فيقشعه . (المعرب)

الفصل السادس

الفتح الإسلامى (*)

إصعاف الهند – محمود الغزنوى – سلطنة دلهى –
انحرافاتها الثقافية ، سياستها الوحشية – عبرة التاريخ الهندى

لعل الفتح الإسلامى للهند أن يكون أكثر قصص التاريخ تلطخاً بالدماء (**)؛ وإن حكاية الفتح لما يبعث اليأس فى النفوس لأن مغزاها الواضح هو أن المدنيّة مضطربة الخطى ، وأن مُركّبها الرقيق الذى قوامه النظام والحرية ، والثقافة والسلام ، قد يتحطم فى لحظة على أيدى جماعة من الهمج تأتى من الخارج غازية (†) ؛ أو تتكاثر فى الداخل متوالدة ، فهؤلاء هم الهندوسيون قد تركوا أنفسهم للانقسام والقتال الداخليين يفتّان فى عضدهم ، واتخذوا لأنفسهم البوذية والجانتية ديناً ، فأخمد مثل هذا الدين جذوة الحياة فى قلوبهم بحيث عجزوا عن الصمود لمشاقّها ؛ ولم يستطيعوا تنظيم قواهم لحماية حدودهم وعواصمهم وثروتهم وحريتهم من طوائف السّكيّت والهون والأفغان والأتراك الذين ما فتئوا يجوبون حول حدود البلاد يرقبون ضعف أهلها لينفذوا إلى جوفها ، فكأنما لبثت الهند أربعة قرون (من ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ ميلادية) تغرى الفاتحين بفتحها ، حتى جاءهم هذا الفتح حقيقة واقعة آخر الأمر .

وكانت أول هجمة للمسلمين إغارة عابرة منهم على « ملطان » التى تقع فى الجزء الغربى من البنجاب (سنة ٦٦٤ م) ثم وقعت من المسلمين إغارات أخرى شبيهة بهذه كان فيها النجاح حليفهم مدى الثلاثة القرون التالية ، حتى انتهى بهم الأمر إلى توطيد سلطانهم فى وادى نهر السند فى نحو الوقت الذى

(*) فى هذا الفصل تحامل ظاهر على الفتح الإسلامى للهند ، لكننا مضطرون إلى تركه كما هو ليتناوله المؤرخون بالرد ، وليقرأه القارئون قراءة النقد لا قراءة التسليم . (المعرب)

(**) إن المنهج العلمى الأمين يرفض مثل هذه الإطلاقات ، ويرفض استعمال أفعل التفضيل بهذه البساطة ، وإلقاء القول على عواهنه دون بينة حاسمة أكيدة . . . وليس من المنتظر أن يكون هناك حرب دون دماء ، وقد شهد التاريخ فى أزمنة وأمكنة متعددة ، حتى فى العصر الحديث سفك دماء أكثر مما سفك فى الفتح الإسلامى للهند . . .

(†) إن حقائق التاريخ تعرف أن المسلمين حين فتحوا الهند لم يكونوا « جماعة من الهمج » ولو كانوا كذلك لما تركوا آثارهم الواضحة على حضارة الهند ، مما أوضحه كبار مثقفى الهنود من غير المسلمين مثل الزعيم نهرو فى كتاباته التاريخية . (الإدارة الثقافية)

obeikandi.com

كان زملاؤهم فى الذين يقاتلون فى الغرب موقعة « تور » (٧٣٢ م) ليخلصوا منها إلى فرض سيادتهم على أوربا ، على أن الفتح الإسلامى الحقيقى للهند لم يقع إلا بعد نهاية الأعوام الألف الأولى من التاريخ الميلادى .

ففى سنة ٩٩٧ تولى شيخ من شيوخ الأتراك يسمى محمود سلطنة دولة صغيرة ؛ تقع فى الجزء الشرقى من أفغانستان ، وهى دولة غزنة ؛ وأدرك محمود أن ملكه ناشىء وفقير ، ورأى الهند عَبْرَ الحدود بلداً قديماً غنياً ، ونتيجة هاتين المقدمتين واضحة ؛ فزعم لنفسه حماسة دينية تدفعه إلى تحطيم الوثنية الهندوسية ، واجتاح الحدود بقوة من رجاله تشتعل حماسة بالتقوى التى تطمع فى الغنيمة ، والتقى بالهندوسيين آخذاً إياهم على غرة فى « بهمناجار » فقتلهم ونهب مدائنهم وحطم معابدهم وحمل معهم كنوزاً تراكمت هناك على مر القرون ؛ حتى إذا ما عاد إلى غزنة ، أدهش سفراء الدول الأجنبية بما أطلعهم عليه من الجواهر واللآلىء غير المثقوبة والياقوت الذى يتلألأ كأنه الشرر ، أو كأنه النبيذ جمدة الثلج ، والزمرد الذى أشبه غصون الريحان اليانعة ، والماس الذى ماثل حب الرمان حجماً ووزناً[٧٢] . وكان محمود كلما أقبل شتاء هبط على الهند وملأ خزائنه بالغنائم ، وأمتع رجاله بما أطلق لهم من حرية النهب والقتل ، حتى إذا ما جاء الربيع عاد إلى عاصمة بلاده أغنى مما كان ؛ وفى « ماثوره » (على جمنه) أخذ من المعبد تماثيله الذهبية التى كانت تزدان بالأحجار الكريمة وأفرغ خزائنه من مكنونها الذى كان يتألف من مقادير كبيرة من الذهب والفضة والجوهر ؛ وأعجبه فن العمارة فى ذلك الضريح العظيم ، ثم قدر أن بناء مثله يكلف مائة مليون دينار وعملا متصلا مدى قرنين ، فأمر به أن يغمس فى النفط ، وأن يترك طعاماً للنار حتى أتت عليه[٧٣] ، وبعد ذلك بستة أعوام أغار على مدينة غنية أخرى تقع فى شمال الهند ، وهى مدينة « سمنة » فقتل سكانها جميعاً وعددهم خمسون ألف نسمة ، وحمل كنوزها إلى غزنة ؛ ولعله فى نهاية أمره قد أصبح أغنى ملك عرفه التاريخ ؛ وكان أحياناً يبقى على سكان المدن المنهوبة ليأخذهم معه إلى وطنه فيبيعهم هناك رقيقاً ، لكن هؤلاء

الأسرى بلغوا من الكثرة حداً أدى بهم إلى البوار بعد بضعة أعوام ، بحيث يتعذر أن تجد من يدفع أكثر من شلنات قليلة ثمناً للعبد من هؤلاء ؛ وكان محمود كلما هم بعمل حربى هام ، جثا على ركبتيه مصلياً يدعو الله أن يبارك له فى جيشه ، وظل يحكم ثلث قرن : فلما جاءته منيته ، كان قد أثقلته السنون ودواعى الفخار ، فوصفه المؤرخون المسلمون بأنه أعظم ملوك عصره ، وأن أعظم الملوك فى كل العصور(٧٤) .

فلما رأى سائر الحكام المسلمين ما خلعه التوفيق من جلال على هذا اللص(*) العظيم ، حذوا حذوه ، ولم يستطع أحد منهم أن ينزه فى خطته ، ففى عام ١١٨٦ قامت قبيلة تركية من الأفغانستان ، وهى قبيلة الغوريين ، بغزو الهند والاستيلاء على دلهى ، وخربوا معابدها وصادروا أموالها ونزلوا بقصورها ليؤسسوا لأنفسهم بذلك سلطنة دلهى — وهى سلطنة استبدادية وفدت إلى البلاد من خارج ، وجثمت على شمال الهند ثلاثة قرون ، لم يخفف من عبئها إلا حوادث الاغتيال والثورة ؛ وكان أول هؤلاء السلاطين الأشرار هو « قطب الدين أيبك » الذى يعد نموذجاً سوياً لنوعه — فهو متوحش فى تعصبه غليظ القلب لا يعرف الرحمة ؛ ويروى لنا عنه المؤرخ المسلم فيقول إن عطاياه « كانت توهب بمئات الألوف ، وقتلاه كانوا كذلك يعدون بمئات الألوف » فى قصر واحد ظفر به هذا المحارب (الذى كان قد بيع عبداً) « وضع فى أغلال الرق خمسين ألف رجل واسودت بطاح الأرض بالهنود»(٧٥) ؛ وكان « بَلْبان » — وهو سلطان آخر — يعاقب الثائرين وقطاع الطرق برميهم تحت أقدام الفيلة ، أو ينزع عنهم جلودهم ، ثم يحشو هذه الجلود بالقش ويعلقها على أبواب دلهى ؛ ولما حاول بعض السكان المغوليين الذين كانوا قد استوطنوا دلهى واعتنقوا الإسلام ، أن يقوموا بثورة ، أمر السلطان علاء الدين (فاتح شيتور) بالذكور جميعاً — ويقع عددهم بين خمسة عشر ألفاً وثلاثين ألفاً

(*) إن شريعة الحرب تجيز إضعاف العدو مادياً ومعنوياً بكل سبيل ، وليس من الإنصاف تلوين الفتح الإسلامى للهند بأنه كان سلباً ونهباً مثلما ورد فى هذا الموضع ، إن وصف السلطان الغزنوى بهذا الوصف هو غبن لهذا الفاتح العظيم . (الإدارة الثقافية)

ـ فقتلوا فى يوم واحد ؛ وجاء السلطان محمود بن طغلق فقتل أباه وتولى العرش من بعده ، وقد أصبح فى عداد العلماء الأعلام والأدباء أصحاب الأسلوب الرشيق ، فدرس الرياضة والطبيعة والفلسفة اليونانية ، ولكنه مع ذلك بز أسلافه فى سفك الدماء وارتكاب الفظائع ، من ذلك أنه جعل من ابن أخ له ثار عليه طعاماً أرغم زوجة القتيل وأبناءه على أكله ؛ وأحدث فى البلاد تضخماً مالياً باستهتاره فجلب الدمار إلى البلاد ، وتركها خراباً بما أجراه فيها من نهب وقتل ، حتى لقد لاذ سكانها بالفرار إلى الغابات ، ولقد أوغل فى قتل الهنود حتى قال عنه مؤرخ مسلم : « إن أمام رواقه الملكى وأمام محكمته المدنية لم يَخْلُ المكان قط من أكداس الجثث ، حتى لقد مل الكناسون والجلادون ، وأتعبهم جَرّ الأجساد ـ أجساد الضحايا ـ لأعمال القتل فيهم زرافات»(٢٦) ؛ ولما أراد أن ينشىء عاصمة جديدة فى « دولة أباد » أخرج سكان دلهى من بلدهم لم يُبْقِ منهم أحداً ، وخلف المدينة فقراً يباباً ، وسمع أن رجلا أعمى قد ظل مقيما فى دلهى . فأمر به أن يُجَرّ على الأرض من العاصمة القديمة إلى العاصمة الجديدة ، ولما بلغوا بالمسكين آخر رحلته لم يكن قد بقى من جسده إلا ساق واحدة(٧٧) وشكا السلطان من نفور الشعب منه وعدم اعترافهم بعدله الذى لم ينحرف عن جادة السبيل .

وظل يحكم الهند ربع قرن ثم وافته منيته وهو فى فراشه ، وتبعه « فيروز شاه » فغزا البنغال ، ووعد أن يكافئ كل من جاءه برأس هندىّ ، حتى لقد دفع فى ذلك مكافآت عن مائة وثمانين ألفاً من الرءوس ، وأغار على القرى الهندية طلباً للرقيق ، ومات وهو شيخ معمر ، بلغ من العمر ثمانين عاماً ، وجاء السلطان أحمد شاه ، فكان يقيم الحفلات ثلاثة أيام متوالية كلما بلغ القتلى فى حدود ملكه من الهنود العُزّل عشرين ألفاً فى يوم واحد(٧٨) .

وكثيراً ما كان هؤلاء الحكام رجالا ذوى قدرة ، كما كان أتباعهم يمتازون ببسالة جريئة ونشاطاً ، وبغير هذا الفرض فيهم لا نستطيع أن نفهم كيف أتيح

لهم أن يصونوا ملكهم وسط شعب مُعَادٍ لهم ويفوقهم عدداً بنسبة كبيرة ؛ وكانوا جميعاً مسلحين بعقيدة حربية النزعة لكنها أسمى بكثير فى توحيدها الجادّ من كل المذاهب الدينية الشائعة إذ ذاك فى الهند ؛ ولقد عملوا على طمس ما لعقيدتهم تلك من ظاهر جذاب ، بأن أرغموا الهنود على عدم القيام بشعائر دينهم علناً ، وبهذا مهدوا للهنود طريق الانغماس فى صميم الروح الهندية إلى أعماقها ؛ وكان لبعض هؤلاء الحكام المستبدين العطشى للطغيان ثقافة إلى جانب ما كان لهم من قدرة ، فَرَعَوا الفنون وهيئوا سبل العيش لرجال الفن والصناعة — وهؤلاء عادة من أصل هندى — بأن استخدموهم فى بناء المساجد والأضرحة الفخمة ؛ وكذلك كان بعضهم علماء يمتعهم أن يحاوروا المؤرخين والشعراء ورجال العلوم ، ولقد صحب محموداً الغزنوى إلى الهند عالم من أعظم علماء آسيا وهو البيرونى ، وهناك كتب استعراضاً علمياً عن الهند قريب الشبه بكتاب « التاريخ الطبيعى » لمؤلفه (پلنى) . وكتاب « الكون » « الهمبولت » وكان للمسلمين مؤرخون يكادون يبلغون عدد ما كان لهم من قادة الجيش ، ولم يقلوا عنهم فى حبهم لسفك الدماء والحرب ؛ وأما السلاطين فقد ابتزوا من الشعب كل ما فى مستطاع الناس أن يدفعوه من مال على سبيل الجزية ، واصطنعوا فى ذلك الوسائل العتيقة فى فرض الضرائب ، كما لجأوا أيضاً إلى السرقة الصريحة ، لكنهم كانوا يقيمون فى الهند وينفقون غنائمهم تلك فى الهند ، فأعادوا إلى الحياة الاقتصادية فى الهند ما استلبوه منها ؛ ومهما يكن من أمر فقد كانت وسائلهم الإرهابية واستغلالهم للناس مما زاد من إضعاف البنية الهندية وإضعاف الروح المعنوية بين الهنود ، وهو إضعاف عمل عليه قبل ذلك مناخ البلاد المنهك للقوى وقلة ما يأكلونه من طعام ، وتمزق البلاد من الوجهة السياسية والنظرة المتشائمة التى توحى بها دياناتهم .

وقد رسم علاء الدين تخطيطاً واضحاً للسياسة التى جرى عليها السلاطين فى

معظم الأحيان . وذلك أنه طلب إلى مستشاريه أن يسنوا « قواعد وقوانين يكون من شأنها أن تسحق الهنود سحقاً ، وأن تسلبهم تلك الثروة وهاتيك الكنوز التي كانت تولد في نفوسهم البغضاء والثورة »[٨٠] ؛ فكانت الحكومة تستولي على نصف مجموع المحصول الزراعي ، بعد أن كان الحكام الوطنيون قبل ذلك يستولون من ذلك المحصول على سدسه فقط ؛ يقول مؤرخ مسلم : « لم يستطع هندي أن يرفع رأسه ، ولم تكن لترى في دورهم أثراً للذهب أو لفضة :.. بل لم تكن لترى هناك شيئاً مما يزيد عن ضرورات الحياة ... وكانوا يجبرون على دفع الضريبة باللطمات وتقييد الأقدام والشد بالأغلال والزج في السجن » ، وكان علاء الدين إذا ما احتج أحد مستشاريه على سياسته هذه أجابه بقوله : « أيها الفقيه ، إنك متبحر في العلم لكنك خلو من الخبرة ، أما أنا فلا علم عندي لكني رجل محنك ؛ فكن على يقين أن الهنود لن يذلوا أو يطيعوا حتى ننزل بهم الفقر ، ولهذا أصدرت أمري بألا يترك في أيديهم إلا الضروري لحفظ الحياة مما يجمعونه عاماً بعد عام من محصول الغلال واللبن والجبن ، وألا يسمح لهم قط بادخار الأموال والأملاك »[٨١] .

وفي هذا سر التاريخ السياسي للهند الحديثة ؛ فقد مزقها الانقسام حتى جثت أمام الغزاة ثم أفقرها هؤلاء الغزاة فأفقدوها قوة المقاومة ، فاستجارت من هذا البلاء بغزاء في الحياة الآخرة ، ومن هنا راحوا يؤمنون بأن السيادة والعبودية كلاهما وهم زائل ، ويعتقدون بأن حرية البدن أو حرية الأمة لا تكادان تستحقان الجهاد في مثل هـــذه الحياة القصيرة ، والعبرة المرّة التي نستخلصها من هذه المأساة هي أن اليقظة الساهرة أبداً هي ضمان دوام المدنية ؛ فالأمة ينبغي أن تحب السلام ، لكنها يجب أن تكون دواماً على أهبة الاستعداد للقتال .

الفصل السابع

أكبر العظيم (*)

تيمورلنك ، بابور – هيون ، أكبر ، حكومته – شخصيته – رعايته للفنون – تحمسه للفلسفة – حسن علاقته بالهندوسية والمسيحية – ديانته الجديدة – أكبر فى أخريات أيامه

إن من طبيعة الحكومات أن يصيبها الانحلال ، لأن القوة – كما قال شلى – تسمم كل يد تمسها(٨٢) فقد أدى إسراف سلاطين دلهى إلى فقدانهم تأييد الهنود لهم ، بل فقدانهم تأييد أتباعهم من المسلمين كذلك ؛ حتى إذا ما أغارت على البلاد جيوش مغيرة جديدة من الشمال ، منى هؤلاء السلاطين بالهزيمة بغير عناء كما كانوا هم أنفسهم قد كسبوا الهند بغير عناء .

وأول من انتصر عليهم فى ذلك هو « تيمورلنك » الذى كان قد اعتنق الإسلام ليتخذ منه سلاحاً ماضياً ، كما قد أعد لنفسه قائمة أنساب تردُّه إلى « جنكيز خان » لكى يعينه ذلك على كسب طائفة المغول إلى جانبه ؛ فلما أن فرغ من استيلائه على عرش سمرقند ، ولم يزل يحسُّ الرغبة فى مزيد من الذهب ، أشرقت عليه فكرة مؤداها أن الهند لم تزل حينئذ مليئة بالكفار ، لكن قواده كانوا يعلمون بسالة المسلمين ، فلم يذهبوا معه فى الرأى ، موضحين له أن الكفار الذين يمكن الوصول إليهم من سمرقند ، كانوا بالفعل تحت الحكم الإسلامى ، ثم أفتى له الفقهاء العلماء بالقرآن بآية تبعث الحماسة فى الصدور وهى : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم »(٨٣) فما هو إلا أن عبر تيمور نهر السند (١٣٩٨) وقتل أو استعبد كل من وقعت عليهم يداه من السكان فلم يستطيعوا الفرار منه ، وهزم جيوش السلطان محمود طغلق

(*) فى الوقت الذى اشتط فيه المؤلف بتجنيه على المسلمين – فيما تقدم – بغير سند وحجة ، نراه هنا – وهو فى معرض الحديث عن « سلاطين دلهى » يقصر تقصيراً معيباً فى بيان آثارهم الإصلاحية ، ويكتفى بالإشارة العابرة إليهم وإلى أتباعهم ، دون أن يسعف القارئ بكلمة عن هؤلاء السلاطين وكيف قاموا ، وعن هؤلاء الأتباع المسلمين وكيف طهروا !!!

(الإدارة الثقافية)

واحتل دلهى ، وذبح مائة ألف من الأسرى ذبحاً متعمداً ، وسلب من المدينة كل أموالها التى كانت الأسرة الأفغانية المالكة قد كدستها هناك ، وحملها معه إلى سمرقند ، مستصحبا كذلك عدداً كبيراً من النساء والعبيد ، تاركا وراءه الفوضى والمجاعة والوباء(٨٤) .

وعاد سلاطين دلهى فاعتلوا عرشهم ، واستغلوا الهند قرنا آخر من الزمان ، حتى جاءهم الفاتح الحقيقى ، وهو « بابور » الذى أسس أسرة المغول(*) العظيمة وهو يشبه الإسكندر كل الشبه فى شجاعته وجاذبيته ، ولما كان سليل تيمور وجنكيز خان معاً ، فقد ورث كل ما اتصف به هذان الحاكمان — اللذان ألهبا آسيا — من قدرة ، دون أن يرث ما كان لهما من غلظة القلب ؛ وكان يعانى من فيض نشاط جسده وعقله ، فطفق يقاتل ويخرج للصيد وللرحلة دون أن يروى بذلك غلته ، ولم يكن عليه عسيراً أن يقتل بمفرده خمسة أعداء فى خمس دقائق(٨٧) ، وحدث أن قطع فى يومين مائة وستين ميلا وهو راكب على ظهر جواده ، ثم واصل مجهوده ذاك فسبح نهر الكنج مرتين كأن الرحلة لم تكفه دليلا على نشاطه ؛ ولقد قال وهو فى أواخر سنيه إنه منذ عامه الحادى عشر لم يصم رمضان مرتين فى مكان واحد(٨٨) .

وله « ذكريات » يستهلها بقوله : « لما بلغت من العمر اثنى عشر عاماً أصبحت حاكماً على فرغانة »(٨٩) ولما بلغ الخامسة عشرة حاصر سمرقند واستولى عليها ، ثم ضاعت من يده لعجزه عن دفع رواتب جنده ؛ واعتلّتْ صحته حتى أوشك على الموت ، واعتصم بالجبال حيناً ، ثم عاد إلى المدينة فاستولى عليها بقوة قوامها مائتان وأربعون رجلا ، وعاد من جديد ففقدها بخيانة غادر ، فاختبأ فى غمرة من الفقر عامين ، حتى لقد فكر فى نفض يده

(*) « المغول » و « المنغول » اسمان على مسمى واحد ، والمغول فى حقيقة أمرهم أتراك ، لكن الهنود كانوا يسمون — ولا يزالون يسمون — المسلمين الشماليين (ما عدا الأفغان) بالمغول(٨٥) وكلمة « بابور » كنية منغولية معناها أسد ، أما الاسم الحقيقى لأول إطواطور مغولى سيطر على الهند فهو زهير الدين محمد(٨٦) .

من حياة الجهاد مكتفياً بحياة الفلاحة فى حقول الصين ؛ لكنه عاود نفسه فنظم جيشاً جديداً وأبدى من الشجاعة ما ألهب الشجاعة فى نفوس جنده واستولى على كابل وهو فى عامه الثانى والعشرين من عمره ، بعد أن أنزل الهزيمة الساحقة بجيش السلطان إبراهيم فى موقعة پانپات ، وقوامه مائة ألف جندى ، مع أن جيشه لم يزد على اثنى عشر ألفاً ، ومعهم عدد من حراجياد ، وقتل الأسرى ألوفاً ألوفاً ، واستولى على دلهى ، وأسس بها أعظم وأكرم أسرة أجنبية مما حكم الهند من أجانب ؛ وأخيراً نعم بحياة وادعة أربعة أعوام ، كان يقرض فيها الشعر ويكتب ذكرياته ، ومات فى سن السابعة والأربعين بعد أن عاش قرناً كاملا إذا عدت السنون بما فيها من نشاط وتجربة .

وكان ابنه « هميون » من الضعف والتردد والإدمان فى الأفيون بحيث لم يستطع أن يتابع السير فى طريق أبيه « بابور » فهزمه « شرشاه » وهو من شيوخ الأفغان ، فى موقعتين دمويتين ، واستعاد حيناً من الدهر سلطة الأفغان فى الهند ؛ ولئن كان « شرشاه » قديراً على القتل فى أحسن صُوَره الإسلامية ، إلا أنه كذلك أعاد بناء دلهى فى ذوق معمارى جميل ، وأقام فى إدارة الحكم اصطلاحات مهدت السبيل للحكم المستنير الذى تم على يدى « أكبر » ؛ وبعد أن تولى الملك شاهان الشأن مدى عشرة أعوام ، نظم « هميون » قوة فى فارس ، بعد اثنى عشر عاماً قضاها فى صعاب وتجوال ، ثم عاد إلى الهند واستعاد العرش ، لكنه لم يلبث بعد ذلك إلا ثمانية أشهر ، إذ سقط من شرفة مكتبته فقضى نحبه .

وكانت زوجته قد أنجبت له أثناء نفيه وفقره ولداً أسماه (محمداً) تبركاً بهذا الاسم ، لكن الهند أطلقت عليه « أكبر » — ومعناها « البالغ فى عظمته حداً بعيداً » — ولم يدخروا من وسعهم شيئاً لتنشئته رجلا عظيما ، بل إن أسلافه قد تعاونوا على اتخاذ التدابير كلها ليبلغوا به قمة العظمة ، ففى عروقه تجرى دماء « بابور » و« تيمور » و« جنكيز خان » وأعد له المربون فى كثرة ، لكنه رفضهم جميعاً وأبى أن يتعلم القراءة ؛ وأخذ يُعدُّ نفسه بدل ذلك لتولى

الملك بالرياضة الخطرة التى ما فتئ يرتاضها ، فأصبح فارساً يتقن ركوب الخيل إلى حد الكمال ، وكان يلعب بالكرة والصولجان لعب الملوك ، ومهر فى فن سياسة الفيلة مهما بلغت من حدة الافتراس ، ولم يتردد قط فى ارتياد الغابة لصيد الأُسْد والنمور وفى تحمل المشاق مهما بلغ عناؤها ، وفى مواجهة المخاطر كلها بشخصه ؛ ولكى يكون تركيا أصيلا ، لم يضعف ضعف الإناث فيمج طعم الدماء البشرية ؛ من ذلك أنه لما كان فى عامه الرابع عشر ، دعى ليظفر بلقب « غازى » — ومعناها قاتل الكفار — بأن قدموا له أسيراً هندياً ليقتله ، فبتر رأس الرجل بتراً فى لمحة سريعة وبضربة واحدة من حسامه ؛ تلك كانت البدايات الوحشية لرجل كتب له أن يكون من أحكم وأرحم وأعلم من عرفهم تاريخ الدنيا من ملوك(*) .

لما بلغ الثامنة عشرة من عمره تسلم مقاليد الأمور من يد الوصى على عرشه ، وكانت رقعة ملكه تمتد فتشمل أكثر من ثُمْن مساحة الهند كلها — فهى شريط من الأرض يبلغ عرضه نحو ثلاثمائة ميل ، ويمتد من الحدود الشمالية الغربية عند ملطان إلى بنارس فى الجانب الشرقى ؛ وامتلأ بما كان يمتلىء به جده من حماسة وجشع ، فشرع يوسع هذه الحدود ، واستطاع بسلسلة من الحروب التى لم تعرف الرحمة أن يبسط سلطانه على الهندستان كلها ، ما عدا مملكة راجبوت التى تخضع لأسرة موار ، فلما عاد إلى دلهى نزع عن نفسه السلاح ، وكرس جهده لإعادة تنظيم حكومة ملكه ، وكان سلطانه مطلقاً فهو الذى يعين الرجال للمناصب الهامة كلها ، حتى ما يقع منها فى الأقاليم النائية ، وكان معاونوه الأساسيون أربعة : رئيس الوزراء ويسمى « فقيراً » ، ووزير المالية ويسمى « وزيراً » أحياناً ، وأحياناً يسمى « ديوانا » ،

(*) عرف قيمة الكتب فى مرحلة متأخرة من حياته ، ولما لم يكن قد تعلم القراءة فقد كان ينصت لغيره ساعات وهو يقرأ له ، وكثيراً ما كانوا يقرءون له كتباً صعبة معقدة ، حتى أصبح فى نهاية الأمر عالماً لا يقرأ ، يحب الآداب والفنون ، ويؤيدهما بسخاء الملوك .

ورئيس للقضاء ويسمى « بخشى » ورئيس للديانة الإسلامية ويسمى « صدراً » ؛ وكان كلما ازداد حكمه استقراراً ورسوخاً فى القلوب ، قل اعتماده على القوة الحربية ، مكتفياً بجيش دائم من خمسة وعشرين ألفاً ، فإذا ما نشبت حرب ، زادت هذه القوة المتواضعة بمن يُجندهم الحكام العسكريون فى الأقاليم — وهو نظام متصدع الأساس كان من عوامل سقوط الإمبراطورية المغولية فى حكم « أورنجزيب(*) » وفشت الرشوة والاختلاس بين هؤلاء الحكام ومعاونيهم ، حتى لقد أنفق « أكبر » كثيراً من وقته فى مقاومة هذا الفساد : واصطنع الاقتصاد الدقيق فى ضبط نفقات حاشيته وأهل أسرته ، فحدد أسعار الطعام وسائر الأشياء التى كانت تُشْتَرَى لهم ، كما حدد الأجور التى تدفع لمن تستخدمهم الدولة فى شئونها ؛ ولما مات ، ترك فى خزينة الدولة ما يعادل بليون ريال ، وكانت إمبراطوريته أقوى دولة على وجه الأرض طراً(٩٠) .

كانت القوانين والضرائب كلاهما قاسياً ، لكنهما كانا مع ذلك أقل قسوة منهما قبل ذلك العهد ، فقد كان مفروضاً على الفلاحين أن يعطوا الحكومة مقداراً من مجموع المحصول يتراوح بين السدس والثلث ، حتى لقد بلغت ضريبة الأراضى فى العام ما يساوى مائة مليون ريال ؛ وكان الإمبراطور يجمع فى شخصه السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ؛ وكان إذا ما جلس فى كرسى القضاء الأعلى ، أنفق الساعات الطوال ينصت إلى أقوال المتخاصمين فى القضايا الهامة ؛ وكان من قوانينه تحريم زواج الأطفال وتحريم إرغام الزوجة على قتل نفسها عند موت زوجها ، وأجاز زواج الأرامل ، ومنع استرقاق الأسرى وذبح الحيوان للقرابين ، وأطلق حرية العقيدة للديانات كلها ، وفتح المناصب

(*) كان الجيش معداً بخير سلاح عرفته الهند حتى ذلك الحين ، لكنه كان فى هذه الناحية أقل إعداداً من جيوش أوروبا إذ ذاك ، وفشل « أكبر » فى محاولته الحصول على بنادق خير من بنادق جيشه ، فتضافر سوء معدات القتل فى جيشه مع انحلال خلفه من بعده ، على تيسير الفتح الأوروبى للهند .

لذوى الكفاءة مهما يكن من أمر عقيدتهم أو جنسهم ، ومنع ضريبة الرؤوس التى كان الحكام الأفغان يفرضونها على الهندوسيين الذين يأبون الدخول فى الإسلام(٩١) ، وكان تشريعه فى بداية حكمه يبيح عقوبات من قبيل بتر الأعضاء ، أما فى نهاية عهده فربما بلغ التشريع فى بلاده من الرقى ما لم تبلغه أية حكومة أخرى فى القرن السادس عشر ، إن كل دولة تبدأ بالعنف ثم تأخذ فى طريق المدنية الذى ينتهى إلى الحرية (ذلك إن أمنت على نفسها الخطر) .

لكن قوة الحاكم كثيراً ما تكون ضعفاً فى حكومته ، فقد كان بناء الحكم قائماً إلى حد كبير على « أكبر » بما كان له صفات عقلية وخلقية ممتازة ، ولذلك كان من البديهى أن يتعرض كل ذلك للإنهيار بعد موته ؛ وبالطبع قد تحلّى بمعظم الفضائل ما دام قد استأجر معظم أقلام المؤرخين : فكان خير رياضى وخير فارس وخير محارب بالسيف ، ومن خير المهندسين فى فن العمارة ، وكان كذلك أجمل رجل فى البلاد كلها ، أما الواقع فإنه كان طويل الذراعين ، مقوس الساقين ، ضيق العينين كسائر المنغوليين ، رأسه يميل نحو اليسار ، وفى أنفه ثؤلول (زائدة جلدية(٩٢) ، لكنه كان يكتسب شكلا محترماً بنظافته ووقاره وهدوئه وعينيه اللامعتين اللتين كانتا تتلألآن (كما يقول أحد معاصريه) : « تلألؤ البحر فى ضوء الشمس » أو كانتا تشتعلان على نحو ترتعد له فرائص المعتدى كما حدث لقاندام أمام نابليون ، كان ساذج الثياب يغطى رأسه بغطاء مزركش ، ويرتدى صدراً وسراويل ، ويرصع نفسه بالجواهر ، ويترك قدميه عاريتين ؛ وكان لا يميل كثيراً إلى أكل اللحم ، ثم امتنع عنه امتناعاً تاماً تقريباً فى أواخر سنيه قائلا « إنه لا يجمل بالإنسان أن يجعل من معدته مقبرة للحيوان » ومع ذلك فقد كان قوى الجسد قوى الإرادة ، وبرع فى كثير من أنواع الرياضة التى تحتاج إلى حركة ونشاط ، واستخف بستة وثلاثين ميلا يمشيها فى يوم واحد ، وكان يحب اللعب بالكرة والصولجان .

حباً حدا به أن يخترع كرة منيرة ليتمكن اللاعبون من القيام بلعبتهم هذه فى ظلمة الليل ؛ وورث من أسلافه فى أسرته ميولها الاندفاعية القوية ، وكان فى شبابه (مثله فى ذلك مثل معاصريه من المسيحيين) قادراً على مشكلاته بالاغتيال ؛ لكنه راض نفسه شيئاً فشيئاً على أن يجلس على بركان نفسه — على حد تعبير وودروولسن — وامتاز من عصره امتيازاً يعيد المدى فى ميله إلى العدل ، وهو صفة لا يتميز بها حكام الشرق دائماً ؛ يقول « فرشتا » : « إن رحمته لم تعرف حدوداً بل إنه كثيراً ما ذهب فى هذه الفضيلة حتى جاوز بها حدود الحكمة[٩٣] » وكان كريماً ينفق الأموال الطائلة إحساناً ، أحبه الناس جميعاً ، وخصوصاً الطبقات الدنيا ، فيقول عنه مبشّر جوويتى : « إنه كان يتقبل من أهل الطبقات الدنيا عطاياهم الحقيرة بوجه باسم ، فيتناولها بيديه ويضمها إلى صدره ، مع أنه لم يكن يفعل مثل ذلك مع أفخر الهدايا التى كان يقدمها له الأشراف » ، وقال عنه أحد معاصريه إنه كان مصاباً بالصرع ، وروى عنه كثيرون أن داء السوداء كثيراً ما كان يستولى عليه إلى درجة تسود معها نظرته إلى الحياة اسوداداً مخيفاً وكان يشرب الخمر ويأكل الأفيون فى اعتدال ، ولعله فعل ذلك ليُكْسِبَ واقع حياته المظلم شيئاً من البريق ، ولقد كان أبوه كما كان أبناؤه يشربون الخمر كما شربها ويأكلون الأفيون كما فعل ، لكنهم لم يكونوا بشهونه فى ضبطه لنفسه(*) وكان له حريم يتناسب مع سعة ملكه ، فيروى لنا أحد الرواة « إن له فى « أجرا » وفى « فتحبور — سِكْرى » — هكذا يروون بصيغة الصدق — ألف فيل وثلاثون حصاناً وألف وأربعمائة غزال وثمانمائة خليلة » لكنه لم يكن له فيما يظهر شهوات حسيّة ولا ميول تدفعه إلى الانغماس فيها ، نعم إنه أكثر من زوجاته ، لكنه كان زواجاً سياسياً ، فكان يتودد إلى أمراء الراجبوت بزواج بناتهم ، وبهذا كسبهم فى تعصيد عرشه ،

(*) مات اثنان من أبنائه فى شبابهما بسبب الإدمان فى الخمر[٩٦] .

وأصبحت الأسرة الحاكمة المغولية منذ ذلك الحين نصف وطنية فيما يجرى فى عروقها من دماء ؛ ولقد أعلى رجلا من أسرة راجپوت حتى نصّبه قائداً أعلى لجيشه ، كما رفع أحد الراجات إلى منصب كبير وزرائه ؛ وكانت أمنيته التى يحلم بها أن يوحّد الهند(٩٤) .

لم يكن ذا عقل واقعى دقيق له برودة المنطق كما كان لقيصر أو نابليون بل كان يتزع بعاطفته نحو دراسة الميتافيزيقا ، ولو أنه خلع عن عرشه لكان من الجائز أن يصبح صوفياً معتزلا ؛ كان لا يكف عن التفكير ولا ينقطع عن اختراع الجديد واقتراح الإصلاح لما هو قائم(٩٥) ؛ وكان من عاداته مثل هارون الرشيد أن يمسّ بالليل متنكراً ، ثم يعود إلى مأواه وهو جياش الصدر برغبة الإصلاح ، واستطاع وسط هذه المناشط الكثيرة أن يفسح بعض الوقت لجمع مكتبة عظيمة تتألف كلها مخطوطات جميلة الخط والنقش ، ديجها له نساخون بارعون كانت لهم عنده منزلة الفنانين ، فهم فى عينه لا يقلون مكانة عن المصورين والمهندسين المعماريين الذين كانوا يزينون مُلكه ؛ وكان يزدرى الطباعة باعتبارها آلية لا تتجلى فيها شخصية الكاتب ، ولم يلبث أن استغنى عن العينات المختارة من الرسوم الأوروبية المطلوعة التى قدمها له أصدقاؤه من الجزويت ، ولم تزد مكتبته على أربعة وعشرين ألف كتاب ، لكن قيمتها بلغت ما يساوى ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف ريال(٩٧) عند أولئك الذين حسبوا أن أمثال هذه الكنوز الروحية يمكن تقديرها بأرقام مادية ، وأجزل العطاء للشعراء بغير حساب ، وقرّب أحدهم من نفسه — هو بربال الهندى — تقريباً جعله ذا حظوة كبرى فى حاشية قصره ، وأخيراً نصّبه فى الجيش قائداً ، فكان من نتيجة ذلك أن قام « بربال » بحملة حربية أظهر فيها عجزاً شديداً ، وقتل فى جو أبعد ما يكون الجو عن خيال الشعراء(٩٨)(*) :

(*) كان « بربال » بغيضاً لدى المسلمين . ولذا فرح هؤلاء لموته ، حتى لقد سجل أحدهم —

وأمر « أكبر » أعوانه من الأدباء أن يترجموا إلى الفارسية — وقد كانت لغة قصره — آيات الأدب والتاريخ والعلم فى الهند ، وراجع بنفسه ترجمة الملحمة الخالدة « ماهابهاراتا »[١٠٠] وازدهرت الفنون كلها فى ظله وبتشجيعه ، فشهدت الموسيقى الهندية والشعر الهندى فى عهده عصراً من أعظم عصورهما وبلغ التصوير — الفارسى منه والهندى — مرتبة تالية فى ارتفاعها للأوج بفضل تشجيعه[١٠١] وأشرف فى « أجرا » على بناء « الحصن » المشهور ، وأمر أن يبنى بداخله خمسمائة بناء ، عدّها معاصروه من أجمل ما تراه العين فى العالم كله ؛ لكن هذه المبانى قد تحطمت تحطيما على يدى « شاه جهان » الأرعن ، وليس فى مقدورنا أن نحكم عليها استنتاجاً من آثار العمارة الباقية من عهد « أكبر » مثل مقبرة « همايون » فى دلهى ، والآثار الباقية فى « فتحبور — سيكرى » حيث أقيم ضريح لصديق « أكبر » المحبوب ، الزاهد الشيخ سليم شستى ، وهو بناء من أجمل ما فى الهند من بناء .

ثم كان له اتجاه آخر أعمق من هذه الاتجاهات كلها ، وهو ميله إلى التأمل ، فهذا الإمبراطور أوشك أن يكون قادراً على كل شىء ، تحرق فؤاده شوقاً إلى أن يكون فيلسوفاً — كما يشتهى الفلاسفة أن يكونوا أباطرة ، ولا يستطيعون ، أن يسيغوا حمق القدر فى حرمانه إياهم ما هم جديرون به من عروش ، فبعد أن فتح « أكبر » العالم ، أحسّ شقاء نفسه لأنه لم يستطع فهماً لهذا العالم الذى فتحه وقد قال : « على الرغم من أنى أسُود هذا المُلك الفسيح ، وزمام الحكومة كلها فى يدى ، فلست مطمئن الفؤاد لهذه العقائد الكثيرة والمذاهب المختلفة من حولى ، مادامت العظمة الحقيقية كائنة فى تنفيذ إرادة الله ؛ فدع عنك هذه الأبهة الظاهرة المحيطة بى ، وقل لى كيف أطيب بالا ، فى مثل هذا اليأس ، إذا

= وهو المؤرخ بادونى — حادثه موته بنشوة وحشية فقال . « إن بربال الذى فقد خوفاً من حياته ، قد قتل ودخل جهنم منخرطاً فى صف الكلاب »[٩٩]

ما حملت عبء الإمبراطورية ؟ إنى لأرقب ظهور رجل حصيف ذى مبدأ ليزيح عن ضميرى هذه المشكلات التى يتعذّر علىّ حلها ... إن الحديث فى الفلسفة يفتننى فتنة تصرفنى عن كل ما عداها ، وإنى لأنصرف عن سماعها رغم أننى حتى لا أهمل واجباتى التى تقتضيها أمور الساعة »(١٠٢) ويقول بادونى : « كان يحجّ إلى قصره طوائف العلماء من كل أمة ، والحكماء من كل ملة ومذهب ، وكانوا يظفرون لديه بشرف استماعه إليهم ؛ وإذا ما فرغوا من بحثهم وتقصّيهم اللذين كانا شغلهم الشاغل ومهمتهم الأولى ليلا ونهاراً تحدثوا فى مسائل عميقة فى العلم ، ونقط دقيقة فى الوحى ، وأعاجيب التاريخ وغرائب الطبيعة(١٠٣) ؛ ويقول « أكبر » : « إن سيادة الإنسان تعتمد على جوهرة العقل »(١٠٤) .

ولما كان فيلسوفاً فلا عجب أن يأخذه شغف شديد بالدين ؛ فقد أغرته قراءته الدقيقة للملحمة « ماهابهاراتا » ودراسته الوثيقة لشعراء الهنود وحكمائهم بدراسة العقائد الهندية ، ولبث حيناً — على الأقل — يؤمن بمذهب التناسخ ، وخيّب فيه ظن أتباعه من المسلمين حين طهر على الملأ بعلامات دينية هندية على جبهته ؛ فقد كان له شغف بملاطفة أصحاب العقائد كلها ، لذلك تودد إلى الزرادشتيين بأن لبس ما يلبسونه من قميص ومنطقة مقدسين تحت ثيابه ، وانصاع للجانتيين حين طلبوا إليه أن يمتنع عن الصيد ؛ وأن يحرم قتل الحيوان فى أيام معلومة ، ولما سمع بالديانة الجديدة المسماة بالمسيحية ، التى جاءت إلى الهند مع بعثة « جوا » البرتغالية ، أرسل خطاباً إلى هؤلاء المبشرين التابعين لمذهب بولس ، يدعوهم أن يبعثوا له باثنين من علمائهم ، وحدث بعد ذلك أن قدِم جماعة من الجزويت مدينة دهلى ، وحبّبوه فى المسيح حتى أمر كتّابه أن يترجموا له العهد الجديد(١٠٥) وأباح لهؤلاء الجزويت كل حرية فى أن يُنَصِّروا من شاءوا بل عهد إليهم بتربية أحد أبنائه ؛ وفى الوقت الذى كان الكاثوليك يفتكون بالبروتستنت فى فرنسا ، والبروتستنت — فى عهد اليصابات — يفتكون بالكاثوليك فى إنجلترا ، ومحاكم التفتيش تقتل اليهود فى أسبانيا

وتسلبهم أملاكهم و « برونو » يقذف به فى النار فى إيطاليا ، كان « أكبر » يوجه الدعوة إلى ممثلى الديانات كلها فى إمبراطوريته ليعقدوا مؤتمراً ، وتعهد لهم بحفظ السلام بينهم وأصدر المراسيم بوجوب التسامح مع المذاهب كلها والعقائد كلها ، ولكى يقيم الدليل على حياده ، تزوج من نساء البراهمة ومن نساء البوذية ، ومن نساء المسلمين جميعاً .

وكان ألذ ما يمنعه بعد أن بردت فى نفسه جذوة الشباب المضطرمة ، المناقشات الحرة فى العقائد الدينية ، ولقد ترك تعاليم الإسلام الجامدة تركاً تاماً(*) حتى أغضب بحياده هذا فى الحكم رعيته من المسلمين ؛ يقول عنه . سانت [فرانسس زافير » فى شىء من المغالاة : « لقد حطم هذا الملك مذهب محمد ، وهاجمه هجوماً بحيث لم يبق له فضيلة واحـــدة ، ولم يعد فى هذه المدينة مسجد أو قرآن — هو كتاب شريعتهم — وأما ما كان هناك من مساجد فقد اتخذوا منها حظائر للخيل أو مخازن » ، ولم يؤمن الملك أقل إيمان بالوحى ، ولم يكن ليصدق شيئاً لا يقوم على صحته برهان من العلم والفلسفة ، وكثيراً ما كان يجمع طائفة من أصدقائه ومن رجال العقائد الدينية المختلفة ثم يأخذ فى مناقشة الدين معهم من مساء الخميس إلى ظهر الجمعة : فإذا ما اعترك فقهاء المسلمين مع قساوسة المسيحيين ، زجرهم قائلا إن الله ينبغى أن يعبد بالعقل لا بالتمسك بوحى مزعوم ، وكان مما قاله ، فجاء شبيهاً بروح كتاب « اليوپانشاد » ، بل ربما كان فى قوله هذا متأثراً « باليوپانشاد » و « كابر » : « كل إنسان يسمى الكائن الأسمى باسم يلائم وجهة نظره ، والواقع أن تسميتنا لما يستحيل علينا إدراكه ضرب من العبث » واقترح بعض المسلمين أن تُخْبَر المسيحية إزاء الإسلام بمحنة النار ، وذلك أن يمسك شيخ من شيوخ المسلمين بالقرآن ، وأن يمسك قسيس بالإنجيل ، ثم يخوضان معاً فى النار ، فمن خرج منهما سالماً من الأذى ، اعترف له منادياً فى الأرض بصوت الحق ،

---

(١) إذا كان للؤلف أن يعجب ما شاء له الإعجاب بنشاط السلطان (أكبر) العقلى ومحاوراته ومحاولاته فى مجال العقيدة فليس من الإنصاف أن يصف ببساطة تعاليم الإسلام بالجمود . (الإدارة الثقافية)

وتصادف أن « أكبر » لم يكن يحب الشيخ المسلم الذى اقترحوه لهذه التجربة فتحمس للاقتراح ، لكن الجزويت رفضوه لأنه إفك وخروج على الدين ، لا لأنه خطر على حياة من تقع عليه التجربة ، وجعل اللاهوتيون المتنافسون يجتنبون أمثال هذه الاجتماعات شيئاً فشيئاً ، حتى لم يعد يحضرها إلا « أكبر » نفسه مع أصدقائه من أصحاب النظرة العقلية(١٠٦) .

وضاق أكبر ذرعاً بالانقسامات الدينية فى مملكته . وأفزعه الاحتمال بأن تؤدى هذه الديانات المتنافسة إلى تمزيق المملكة بعد موته ، فاستقر رأيه آخر الأمر على أن يكوّن منها ديانة جديدة ، تضم أهم تعاليم العقائد المختلفة فى صورة بسيطة ويحكى لنا المبشر الجزويتى هذا النبأ كما يأتى :

« عقد اجتماعاً دعا إليه كل رجال العلم البارزين والقواد العسكريين فى المدن المجاورة ، لم يستثن أحداً إلا الأب « رودلفو » الذى كان من العبث أن ترجو منه شيئاً غير مناصبة هذه الدعوة الدينية العداء ؛ فلما أن اجتمعوا جميعاً أمامه ، خطبهم بأسلوب سياسى ماهر ماكر قائلا :

« إنه لمن الشر فى إمبراطورية يحكمها رأس واحد أن ينقسم الأعضاء بعضهم على بعض وأن يتباينوا فى الرأى . . . ومن ثم نشأ فى البلاد أحزاب بمقدار ما فيها من عقائد دينية ، وإذن فلزام علينا أن ندمج هذه العقائد كلها فى دين واحد ، على نحو يجعلها كلها ممثلة فى هذا الواحد ، وتكون الفائدة الكبرى التى يجنيها كل من هذه الديانات ، أنه لن يخسر شيئاً من جوانبه الحسنة . ثم يكسب كل ما هو حسن فى سائر الديانات ، وبهذا وحده نمجد الله ونهيئ للناس سلامة وللإمبراطورية أمناً(١٠٧) » .

ووافق المجلس مرغماً ، فأصدر « أكبر » مرسوماً يعلن نفسه رئيساً دينياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهذه الرئاسة الدينية هى أهم ما أثرت به المسيحية على الديانة الجديدة ؛ وكانت هذه العقيدة الجديدة توحيداً يمثل التقاليد الهندية فى التوحيد خير تمثيل ، مضافاً إليه قبس من عبادة

الشمس والنار مأخوذاً من العقيدة الزردشتية ، وفيه عنصر شبيه بالمذهب الجاينى فى إيثاره للامتناع عن أكل اللحوم ، وعُدَّ ذبح الأبقار كبيرة من الكبائر ، فما أشد ما اغتبط لذلك الهندوس ، وما أقل ما اغتبط له المسلمون ؛ وصدر بعدئذ مرسوم يجعل الاقتصار على أكل النبات إلزاماً على الناس جميعاً مدى مائة يوم على الأقل كل عام ، ثم سار مع ميول الوطنيين خطوة أخرى فحرم الثوم والبصل ، وحرم تشييد المساجد وصيام رمضان والحج إلى مكة وغير ذلك من شعائر المسلمين ؛ ولما أراد المسلمون مناهضة هذه المراسيم ، نفى كثير منهم(١٠٨) ، وأقيم وسط «محكمة السلام» فى « فتحبور — سيكرى — » معبد للديانة المتحدة الجديدة (ولا يزال هذا المعبد قائماً) رمزاً للأمل الذى كان يضطرم فى صدر الإمبراطور ، وهو أن يكون أهل البلاد جميعاً — بفضل العقيدة الجديدة — إخواناً يعبدون إلهاً لا يختلف من طائفة إلى طائفة .

ولم يكن النجاح حليف « الدين الإلهى » باعتباره دينا ووجد « أكبر أن التقاليد أقوى من أن يهدمها بقوله إنه يجل عن الخطأ ؛ نعم إن بضعة آلاف من الناس التفّوا حول الدين الجديد ، كان معظمهم ممن يريدون من وراء ذلك اكتساب حظوة عند الدولة ، لكن الأغابية العظمى ما زالت مستمسكة بآلهتها الموروثة ؛ وأما من الوجهة السياسية فقد كان لخطته الدينية بعض النتائج المعينة ؛ فلئن كان « أكبر » بوحيه الدينى الجديد قد أبدى شيئاً من الأنانية ومن الإسراف ، فقد عوّض عن ذلك خير العوض بإلغائه لضريبة الرؤوس وضريبة الحج المفروضتين على الهندوس ، وبإطلاقه الحرية للعقائد الدينية كلها(*) ، وبإضعافه لروح التعصب الدينى والجنسى وما يتبع ذلك من جمود الرأى وانقسام الطوائف ؛ ولقد كسب إلى جانبه بفضل دينه الجديد ولاء الهندوس ، حتى أولئك الذين لم يعتنقوا منهم تلك العقيدة الجديدة ، فاستطاع بذلك أن يحقق غايته الرئيسية إلى حد بعيد ، وأعنى بها الوحدة السياسية للبلاد .

(*) إذا استثنينا اضطهاد الإسلام لفترة من الزمن (١٥٨٢ — ٥) .

لكن هذا « الدين الإلهى » كان مصدر كراهية شديدة له فى نفوس إخوانه فى الإسلام ، حتى لقد انتهى الأمر بهم مرة إلى شق عصا الطاعة علناً ، وإثارة الأمير « جهان كير » على أبيه بحيث أخذ يدبر له المكائد خفية ؛ وكان مما أثار القلق فى نفس الأمر أن « أكبر » قد ظل يحكم البلاد أربعين عاماً ، وأن بنيته لم تزل من القوة بحيث لا أمل فى موت قريب يصيبه ، لهذا حشد « جهان كير » جيشاً من ثلاثين ألف فارس ، وقتل « أبا الفضل » مؤرخ القصر وأحبَّ الأصدقاء إلى نفس الملك ، ثم أعلن نفسه إمبراطوراً ، لكن « أكبر » حمل الأمير الشاب على التسليم ، وعفا عنه بعد يوم واحد ، غير أن خيانة الابن لأبيه عملت على قتل أمه وقتل صديقه ، وحطمت قوته النفسية ، وتركته فريسة هينة « للعدو الأعظم » حتى لقد تنكر له أبناؤه فى أواخر أيامه وبذلوا جهدهم كله فى النزاع على العرش ، ومات « أكبر » فلم يكن إلى جانبه إلا طائفة قليلة من أصدقائه المقربين — مات بمرض الديسنتاريا ، أو مات مسموماً بتدبير « جهان كير » على اختلاف الآراء فى ذلك ، وجاء الشيوخ الدينيون إلى فراش الموت يحاولون أن يردوه إلى الإسلام ، لكنهم منوا بالفشل ، وهكذا « قضى الملك دون أن يجد من يصلى على روحه بين أنصار أية عقيدة أو مذهب »[١٠٩] ولم يشيّع جنازته عدد كبير من الناس ، فكانت جنازته متواضعة وليس أبناؤه ورجال حاشيته ثياب الحداد بمناسبة موته ، لكنهم خلعوها فى مساء اليوم نفسه ، فرحين بوراثتهم للملك من بعده فكان موته موتاً مريراً ، مع أنه أعدل وأحكم حاكم شهدته آسيا فى كل عصورها .

الفصل الثامن

تدهور المغول

بناء العظماء – جهان كير – شاه جهان – عظمته – سقوطه –
أورنجزيب – تعصبه – موته – قدوم البريطانيين

عزّ على الأبناء الذين ظلوا يرقبون موته فى صبر نافذ أن يبقوا للإمبراطورية على وحدتها ، تلك الإمبراطورية التى خلقها نبوغه خلقاً ، فلماذا يحدث غالباً أن ينسل عظماء الرجال سلالة متوسطة القدرات والمواهب ؟ أيكون ذلك لأن البذور التى كانت قد أنتجت هؤلاء العظماء – أعنى امتزاج عناصر الأسلاف وممكنات البيئة الحيوية – إنما سارت مدفوعة بالمصادفة وحدها ، فمن الشطط أن نتوقع لها عودة إلى الظهور من جديد ؟ أم يكون ذلك لأن العبقرى يستنفد فى تفكيره وفى جهوده قوة كان يمكن أن يوجهها نحو رعاية أبنائه ، وذلك لا يبقى لورثته من بعده من دمه إلا أضعفه ؟ أم يكون ذلك لأن الأبناء ينحلون فى ظل النعمة واليسار ، فتحرمهم بحبوحة العيش فى سنهم الباكر الحواقز نحو الطموح والرقى ؟

على أن « جهان كير » لم يكن متوسط القدرات والمواهب بقدر ما كان منحلاً قادراً ؛ فقد ولد لأب تركى وأمير هندية ، وانفتحت الفرص كلها التى تسنح لولى العهد ، فانغمس فى الخمر والدعارة ، وأطلق لنفسه العنان فى التمتع السادى بالقسوة على الآخرين ، وقد كان هذا الميل مجبولا فى فطرة أسلافه « بابور » و« همايون » و « أكبر » لكنهم دسّوه دساً فى دمائهم التترية ، فكان يمتعه أن يرى الناس يُسْلَخون أحياء ، أو تنفُذُ فيهم « الخوازيق » أو يقذفون إلى الفيلة تمزّقهم تمزيقاً : وهو يروى لنا فى « مذكراته » أن سائسه

وطائفة من الخدم قدموا ذات يوم إلى ساحة صيده ، وكانوا من عدم الحذر بحيث أدى ظهورهم هناك إلى فزع الطرائد التى كان يتربص لها فى صيده ، حتى أفلتت منه تلك الطرائد ؛ فأمر بالسائس أن يقتل ، وبخدم السائس أن تخلخل ركبهم فيعيشوا أعمارهم كساحاً ؛ وهو يقول إنه بعد أن أشرف على تنفيذ أمره هذا « مضى صيده[١١٠] » ، ولما تآمر عليه ابنه « خسرو » جاء بسبعمائة من أنصار الثائر وأنفذ فيهم « الخوازيق » وصفهم صفاً على امتداد الشوارع فى لاهور ، وهو يذكر لنا فى نشوة من السرور كم انقضى على هؤلاء الرجال من زمن حتى فاضت أرواحهم[١١١] ، وكان له حريم من ستة آلاف امرأة يرعين له حياته الجنسية[١١٢] لكنه فيما بعد انصرف إلى زوجة مفضلة ، هى « نورجهان »(*) ، التى ظفر بها بقتل زوجها ؛ وكان يسود حكومته عدل محايد لكنه قاس ؛ غير أنه إلى جانب ذلك قد أسرف فى نفقاته إسرافاً أبهظ أمة كانت قد أصبحت أغنى أمم الأرض طرا بفضل ما أبداه « أكبر » فى سياسته لها من حكمة ، وما أسداه عليها أمن طال أمده أعواماً كثيرة .

ولما دنا عهد « جهان كير » من ختامه ، زاد الرجل انغماساً فى خمره ، وأهمل واجباته الرسمية فى الحكومة ، فكان من الطبيعى أن تنشأ المؤامرات لملء مكانه ، وحدث فعلا سنة ١٦٢٢ أن حاول ابنه « جهان » أن يعتلى العرش ، ثم لما فاضت روح « جهان كير » جاء « جهان » هذا مسرعاً من الدكن حيث كان مختفياً ، وأعلن نفسه إمبراطوراً ، وقتل كل إخوته ليضمن لنفسه راحة البال ؛ وقد ورث عن أبيه صفات الإسراف وضيق الصدر والقسوة ؛ فأخذت نفقات قصره والرواتب العالية التى كان يتقضاها موظفوه الكثيرون تزداد نسبتها بالقياس إلى دخل الأمة التى كانت تنتجه لها صناعة مزدهرة وتجارة نافقة ؛ وبعد التسامح الدينى الذى أبداه « أكبر » وعدم المبالاة التى

(*) معناها « نور العالم » وهى تسمى كذلك نور محل ومعناها « نور القصر » جهان جير معناها « فاتح العالم » وشاه جهان بالطبع معناها « ملك العالم » .

أظهرها « جهان كير » جاء « جهان » فعاد إلى العقيدة الإسلامية ، واضطهد المسيحيين ، وراح يحطم أضرحة الهندوس تحطيما واسع النطاق لا يعرف إلى الرحمة سبيلا .

وعوّض شاه جهان بعض نقائصه بسخائه لأصدقائه ، وكرمه للفقراء ، وبذوقه وتحمسه للفن مما حفزه إلى تزيين الهند بأجمل فن معمارى شهدته فى تاريخها السابق كله ، ثم بإخلاصه لزوجته « ممتاز محل » — ومعناها « زينة القصر » — ولقد تزوج منها وهو فى سن الحادية والعشرين ، بعد أن أنجب طفلين من خليلة أخرى ، وأنجبت « ممتاز » لزوجها الذى لم يعرف الكلل أربعة عشر طفلا فى ثمانية عشر عاماً ، ثم قضت نحبها فى سن التاسعة والثلاثين ، وهى تلد آخر هؤلاء الأبناء ، فأقام شاه « جهان » « تاج محل » وهو آية بلغت حد الكمال ، أقامه تجليداً لذكراها وذكرى خصوبتها ، ثم انتكس بعدئذ إلى دعارة مخجلة(١١٣) ، وهذا القبر الذى هو أجمل قبور الدنيا جميعاً ، إن هو إلا واحد من مائة آية فنية شيدها « جهان » ، خصوصاً ما شيده منها فى « أجرا » وفى « دلهى الجديدة » التى نمّتْ تحت إشرافه ، وإن ما كلّفته هذه القصور من مال ، وما غرقت فيه حاشية القصر من بذخ ، وما استنفده « عرش الطاووس » من أحجار كريمة(*) ليدل بعض الدلالة على ما فرض على الناس فى سبيل ذلك من ضريبة جاءت على الهند خراباً ، ومع ذلك كله ، ورغم ما شهدته الهند إبان عهد « شاه جهان » من مجاعة هى أسوأ ما مرّ بها فى تاريخها من مجاعات ، فقد كانت أعوامه الثلاثون التى قضاها فى الحكم بمثابة الأوج

(*) يتألف هذا العرش الذى تطلبت صناعته سبعة أعوام ، من جواهر ومعادن ثمينة وأحجار كريمة ، ولا شىء غير هذه ، فقوائمه الأربع من ذهب ، ويحمل سقفه المطلى بالميناء اثنا عشر عموداً من الزمرد ، وعلى كل عمود طاووسان مغطيان بالجواهر ، وبين كل طاووسين شجرة يغطيها الماس والزمرد والياقوت واللآلئ ، وبلغ مجموع التكاليف أكثر من سبعة ملايين ريال ، ولقد استولى « نادرشاه » على هذا العرش ونقله إلى فارس (١٧٣٩) وهناك أخذت أجزاؤه تنتزع شيئاً فشيئاً لتسد نفقات الأسرة المالكة فى فارس(١١٤) .

فى ازدهار الهند وعلو مكانتها ، لقد كان هذا الملك الشامخ بأنفه حاكماً قديراً ، ولئن أهلك أنفساً كثيرة فى حروبه الخارجية ، فقد هيأ لبلاده جيلا كاملا من السلام ، كتب حاكم بريطانى عظيم لبمباى ، هو « مونتستيوارت إلفنستون » يقول :

« إن من ينظر إلى الهند فى حالتها الراهنة قد يميل إلى الظن بأن الكتّاب الوطنيين إنما يسرفون فى وصف ثراء البلاد قديماً ؛ لكن المدن المهجورة والقصور الخاوية والقنوات المسدودة التى لا نزال نراها ، بما هناك من خزانات كبرى وجسور فى وسط الغابات ، والطرق المتهدمة والآبار ومحطات القوافل التى كانت على امتداد الطرق الملكية ؛ كل ذلك يؤيد شهادة الرحالة المعاصرين بحيث يميل بنا إلى العقيدة بأن هؤلاء المؤرخين كانوا يقيمون أقوالهم على سند صحيح »(٩١٥)

كان « جهان » قد بدأ حكمه بقتل إخوته ، لكن فاته أن يقتل أبناءه كذلك فكُتب لأحد هؤلاء الأبناء أن يخلعه عن العرش وذلك هو « أورنجزيب » الذى أثار ثورة سنة ١٦٥٧ وجاء زاحفاً من الدكن ؛ فأمر الشاه — شأنه فى هذا شأن داود — أمر قواده أن يهزموا الجيش الثائر على أن يقتلوا ابنه إن وجدوا إلى إنقاذ حياته من سبيل ؛ لكن « أورنجزيب » غلب جميع الجيوش التى أرسلت لمحاربته ، وألقى القبض على أبيه وسجنه فى « حصن أجرا » حيث لبث الملك المخلوع تسعة أعوام يعانى مُرَّ العذاب ، لم يزره ابنه فى سجنه قط ، ولم يكن فى جواره من يرعاه سوى ابنته المخلصة « جهانارا » ، وكان ينفق أيامه جالساً فى برج الياسمين » مرسلا بصره عَبْرَ « جمنة » إلى حيث ترقد زوجته الحبيبة « ممتاز » فى قبرها المزدان بالجواهر .

على أن هذا الابن الذى خلع أباه على هذا النحو القاسى ، من أعظم القديسين فى تاريخ الإسلام ، بل ربما كان أمير الأباطرة المغول جميعاً بما كان ينفرد به من صفات ؛ فشيوخ الدين الذين تولوا تنشئته صبغوه بدين صبغاً حتى لقد فكر هذا الأمير الشاب يوماً فى أن ينفض يده من الإمبراطورية

بل من العالم كله ، ليعتزل الدنيا راهباً متعبداً ؛ ولبث حياته كلها — رغم طغيانه ودهاء سياسته وتوهمه بأن الأخلاق لا تكون إلا فى مذهبه الدينى — لبث حياته كلها رغم ذلك مسلماً ورعاً ، يقيم الصلاة وينفق فيها وقتاً طويلا ، ويحفظ القرآن كله ، ويجاهد فى قتال الكفار ؛ وما أكثر ما قضى من ساعات يومه فى عبادته ، وما قضى من أيام حياته صائماً ؛ وكان فى معظم الأحيان يخلص فى أداء شعائر دينه إخلاصه فى الدعوة إليها ؛ نعم لقد كان فى السياسة بارداً يقدر عواقب الأمور تقديراً دقيقاً ، وله قدرة على الكذب الماهر فى سبيل بلاده وربه ؛ لكنه مع ذلك كان أقل المغول قسوة وألطفهم مزاجاً ؛ قل القتل فى عهده ، وكاد يستغنى عن اصطناع العقاب فى محاكمة المجرمين ؛ وكانت شخصيته متسقة الجوانب فتواضع فى عزة وصبر فى وجه المعتدى ، وهدوء نفس فى أوقات المحنة ؛ وامتنع عن كل ما يحرمه دينه من ألوان الطعام والشراب وأسباب الترف امتناعاً كان يرقبه فيه ضميره ؛ وعلى الرغم من براعته فى عزف الموسيقى ، أقلع عنها لأنها ضرب من اللذة الحسية والظاهر أنه نفـــذ ما صمم عليه وهو ألا ينفق على نفسه إلا ما كسبت يداه بالعمل[١١٦] فكأنه كان بمثابة القديس أوغسطين أجلس على العرش .

كان « شاه جهان » قد خصص نصف دخله لترقية العمارة وغيرها من الفنون ، أما « أورنجزيب » فلم يعبأ بالفنون ، وهدم ما فيها من آثار « الكفر » مدفوعاً بتعصب دينى ساذج ، وظل خلال نصف القرن الذى حكم البلاد فيه ، يحارب فى سبيل محو الديانات كلها من الهند إلا ديانته ؛ وأمر عماله فى الأقاليم وغيرهم من أتباعه أن يقوضوا كل المعابد التى تتبع الهندوس أو المسيحيين ، وأن يحطموا الأصنام جميعاً ، وأن يغلقوا مدارس الهندوس بغير استثناء ، فكان من جراء ذلك أنه فى عام واحد (١٦٧٩ — ٨٠) هدم ستة وستين معبداً فى « عنبر » وحدها ، وثلاثة وستين معبداً فى « شيتور » ، ومائة وثلاثة وعشرين معبداً فى « أودايبور[١١٧] وأقام مسجداً إسلامياً[١١٨] فى مكان

معبد كان قائماً فى بنارس وكان موضع قدسية خاصة عند الهندوس ، بغية الإساءة المتعمدة إليهم ، وحرم إقامة الشعائر الهندوسية علناً ، وفرض ضريبة فادحة على كل هندى لم يعتنق الإسلام(١١٩) ، فكان من نتيجة هذا التعصب الدينى أن خربت ألوف المعابد التى كان يتمثل فى بنائها ، أو تحتوى داخل جدرانها فنون الهند مدى ألف عام ، فيستحيل علينا اليوم إذا ما أرسلنا الأبصار فى جنبات الهند ، أن نعلم شيئاً مما كان لها من جلال وجمال .

استطاع « أورنجزيب » أن يحوّل حفنة من جبناء الهندوسيين إلى الإسلام لكنه حطم أسرته وبلاده معاً ، وأثن عده بعض المسلمين على أنه من القديسين ، فقد عده ملايين العشب الهندى الذى أخرست ألسنتهم وأرعبت قلوبهم ، شيطاناً رجيما ، وفروا من جباة ضرائبه وتضرعوا إلى الله داعين له بالموت ، نعم بلغت الإمبراطورية المغولية فى الهند أثناء حكمه أوج رفعتها ، إذ امتدت رقعتها إلى بطاح الدكن ، لكنها كانت قوية لا تقيم أساسها على حب الشعب ، وكان لا بد لها أن تنهار عند أول لمسة معادية قوية ، حتى لقد بدأ الإمبراطور نفسه فى أواخر سنيه يتبين أنه قد جلب الدمار إلى تراث آبائه بورعه الضيق الأفق ، وإن ما كتبه فى فراش موته من خطابات ، ليُعدّ وثائق تساق لمأساتها ، يقول فيها :

« لست أدرى من أنا ، ولا إلى أين يكون مصيرى ولا أعلم ماذا عساه أن يصيب هذا الآثم الملىء بالذنوب ... لقد انقضت أعوامى بغير غناء ، كان الله ماثلا فى قلبى ، لكن عينى المظلمتين لم يشهدا نوره . . ليس لى فى المستقبل رجاء ، لقد ذهبت عنى الحمى ، لكن لم يعد لى من الجسد إلا إهابه لقـــد كنت كبير الإثم ولست أدرى أى عذاب أنا ملاقيه . . . . . وعليك سلام الله(١٢٠) » .

وأمر قبل موته أن تكون جنازته بسيطة إلى حد الزهد ، وألا ينفق فى كفنه إلا الروبيات الأربع التى كسبها بحياكة الطواقى ، وأن يغطى نعشه بقطعة

من « الخيش » الساذج ؛ وترك للفقراء ثلاثمائة روبية كسبها بنسخه صورة من القرآن(١٢١)، ومات وعمره تسعة وثمانون عاماً ، بعد أن عُمِّر على الأرض أمداً أكثر جداً مما أراد له أهل الأرض أن يعيش .

ولم تمض بعد موته سبعة عشر عاماً حتى تحطمت إمبراطوريته إرباً إرباً ؛ وكان ما كسبه « أكبر » بحكمته من مناصرة الناس للحكومة ، قد أضاعه « جهان كير » بقسوته ، و« جهان » بإسرافه و « أورنجزيب » بتعصبه ؛ وكانت الأقلية المسلمة قد انهدمت قواها بحرارة الهند ، وفقدت النخوة العسكرية والقوة الجسدية التى كانت لها أيام شبابها ، ولم تأت إليها حملات جديدة من الشمال تشد أزر قواها المنهارة ، ثم حدث فى الوقت نفسه أن بعثت جزيرة صغيرة نائية فى الغرب بطائفة من تجارها لتحصد ما فى الهند من كنوز ، ولم تلبث بعدئذ أن أرسلت مدافعها لتستولى على هذه الإمبراطورية الفسيحة الأرجاء ، التى تعاون فيها الهندوس والمسلمون على بنيان حضارة من حضارات التاريخ الكبرى .